الباب الثاني

تطور الكتابة التاريخية

عند العرب بعد الإسلام

obeikan.com

obeikandl.com

مكانة علم التاريخ عند العرب والمسلمين

كان الجهل والفقر متفشيين في سكان قلب الجزيرة العربية قبل الإسلام، حيث إن معظمهم كانوا من البدو الرحل الذين يتنقلون في أرجائها الواسعة، لذا اضطر المؤرخون الأوائل أن يستندوا في تلك الحقبة على القصة والأسطورة والشعر والنقوش للتعرف على الكثير من القضايا التاريخية. كما أن العرب كانوا يتحدثون عن الروايات التاريخية التي كانوا يتناقلونها جيلاً بعد جيل، وهذه الأساطير تعطي شعوراً تاريخياً قوياً؛ لأنها في مضمونها الحقيقي تسجل أحداثاً تاريخية عظيمة تعتبر بحق من العناصر التاريخية الهامة جداً.

يقول **قاسم عبده قاسم** في مقدمة ترجمته لكتاب «المؤرخون في العصور الوسطى» **لبيريل سمالي:** «فقد ولد التاريخ من ضلع الأسطورة، ونما وترعرع في رحابها، وإذا كان التاريخ من حيث هو سجل للماضي الحضاري الإنساني، فقد بدأ مع بداية الوجود الإنساني نفسه، فإنه كان آنذاك موغلاً في ضبابية الغموض والخيال بشكل جعل بعض الباحثين يصفون الكتابات التاريخية الأولى بأنها (أوسع الأساطير وأكثرها جرأة).. ولكن يبقى السؤال مطروحاً: لماذا سعى الإنسان إلى المعرفة من خلال الأسطورة التي خلق التاريخ في رحمها؟. الواقع إن الرغبة في الكشف عن لغز الوجود الإنساني وأصوله من ناحية، وأصول العادات والتقاليد وغيرها من ظواهر الحاضر من ناحية أخرى، هي التي دفعت الإنسان منذ القدم ـ ولا يزال تدفعه حتى اليوم ـ إلى محاولة فهم حاضره من خلال ماضيه. وبذلك فإننا لا نبالغ إذا قلنا: إن للتاريخ ضرورة اجتماعية. فالقبيلة البدائية التي تعيش في عزلة نسبية تحاول الكشف عن تراثها، لإبراز بطولات الأجداد ومآثرهم، بينما يسعى المجتمع الأكثر تعقيداً في تركيبه إلى تحقيق معرفته بذاته من خلال التفتيش في الماضي للتعرف على شخصية المجتمع وهويته، وأصول المشكلات التي تواجهه».

المعروف أن الأسطورة في كثير من الأحيان ينقصها دراسة الأسباب والنتائج؛ لأن الورثة الأوائل يأخذونها كمسلمة تاريخية غير قابلة للإثبات، لكن بعد أن أشرق الإسلام، صار مؤرخو العرب والمسلمين لا يهتمون كثيراً في الأسطورة التاريخية التي تخالف الحقيقة الثابتة التي تنص على أن الإنسان أعظم وأطهر وأقدس الكائنات الحية، وأنه خليفة الله على الأرض، والتي تتعارض تماماً مع نظرية مؤرخي الغرب التي تقول: إن المجتمع كائن حي والإنسان خلية فيه، متجاهلين بذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وإِذْ قالَ ربُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً قالوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيسْفِكُ الدِّمَاءَ ونَحنُ نسبِّحُ بَحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ مالا تَعلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠]. ركز مؤرخو العرب والمسلمين في أول الأمر على تدوين السيرة النبوية وعلم الأنساب والتراجم الموجزة لرجال العلم والفقه والحديث.. والمتواتر أنهم يجمعون بين كل من علم التاريخ والعلوم الشرعية، حيث إنهم يشعرون بأهمية علم التاريخ لفهم العلوم الشرعية، كما يرون أيضاً أنه طريق قوي لشحذ الهمم العالية والقرائح الصافية، بل هو الوسيلة لمعرفة كل من الغلطات التي وقع فيها الأوائل، وأسباب تدهور الدول والحضارات، والمنهج الأمين للاقتداء بالشخصيات المرموقة. والحق أن مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل يعتقدون أنه من الضروري جداً أن يكون لكل أمة تاريخ يبين مكانها بين الأمم؛ لكي يساعد أبناءها بالعودة إليه، عندما يرغبون أن يعرفوا إسهامات آبائهم وأجدادهم في مجال كل من السياسة والاقتصاد والعلوم الأساسية والتجريبية.

يقول العلامة **عبد الرحمن بن محمد بن خلدون** في كتابه «مقدمة ابن خلدون» ـ الجزء الأول ـ (تحقيق علي عبد الواحد وافي): «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تعم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين

والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحُسن نظر وتثبيت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، وزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً وسميناً، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط».

وخلاصة القول: لاشك أن مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل اكتسبوا سمعة رائعة؛ وذلك لاتساع اطلاعهم ونظرتهم المحايدة للموضوعات المختلفة، فهم لم يصححوا أو يزيفوا في التاريخ بناء على رغباتهم الشخصية، بل كانوا أمناء صادقين في جميع أعمالهم التاريخية؛ لأنهم اعتمدوا على الوثائق الحقيقية المتوفرة بكثرة آنذاك، كما يرجع الفضل لمؤرخي العرب والمسلمين في التعرف على كل من السير والتراجم القصيرة والطبقات التي بين أيدينا، لذا نستطيع أن نقول: إن مؤرخي العرب والمسلمين هم الذين أرسوا كلاً من أسس ومنهج وأهداف علم التاريخ الحديث.

علم التاريخ عند العرب والمسلمين

من الصعب جداً الحصول على معلومات تاريخية دقيقة ومحدودة في العصر الجاهلي؛ لأن الأمم التي عاشت قبل الإسلام لم تدون شيئاً يذكر؛ لأنه لا يوجد سجل تاريخي واضح آنذاك، لذا اعتمد مؤرخو العرب والمسلمين اعتماداً كلياً على بعض النقوش التي حصلوا عليها في اليمن وشمال الحجاز وجنوب الشام، ولكن هذه النقوش معظمها كانت مكتوبة في الخط الحميري المعقد الذي يصعب قراءته على العربي حينئذ، وعليه تخلل تاريخ العرب قبل الإسلام بعض الخزعبلات الخطيرة. والجدير ذكره هنا أن العرب في العصر الجاهلي اهتموا بمعرفة شجاعة فرسانهم وكرم ساداتهم وتحديد أنسابهم، لذا كانوا يتناقلون هذه الحقائق التاريخية بين أفراد عوائلهم، وذلك للحفاظ على مكانة القبيلة بين القبائل الأخرى وعدم اختلاطها بالشوائب، ولكنها للأسف الشديد كانت لا تخلو (هذه البيانات) من التحريف والتعديل والمبالغة في كثير من الأحيان.

يقول **علي أدهم** في كتابه «بعض مؤرخي الإسلام» (سلسلة الثقافة العامة): «التاريخ للأمم بمثابة الذاكرة للفرد، وكل أمة مهما كانت متخلفة في مضمار الحضارة، فلها نصيبها المقسوم من الذكريات الحلوة والمرة، وهذا النصيب المقسوم هو ما يسمى تاريخها، وحينما انبعثت أنوار الإسلام في شبه الجزيرة العربية، كان للعرب نصيبهم المقسوم من الأخبار التاريخية، التي تختلط فيها الحقائق بالأساطير اختلاطاً يجعل التمييز بينها من أشق الأمور، لعدم وجود مدونات يرجع إليها عند المقابلة والتمحيص والوزن والتحقيق. وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى (أيام العرب) وحروبهم قبل الإسلام، وأنسابهم، وأخبار بعض القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس، وشذرات مما سمعوه من أخبار التوراة والتلمود».

كان علم التاريخ يهتم بكل من الوقائع وأوقاتها وأساليبها، لذا اتخذه العرب والمسلمون مرجعاً هاماً للحصول على المعلومات عن الوقائع الزمنية. من هنا اعتبروا كتب السير والمغازي (غزوات وحروب الرسول ﷺ) والأنساب من كتب التاريخ. والمعروف أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤرخون في الأحداث الكبيرة مثل عام الفيل، وموقعة ذي قار، وخراب سد مأرب، وحرب كل من البسوس وداحس والغبراء وغيرها، لهذا يتضح للقارىء أن علم التاريخ عبارة عن سجل صادق للحضارة الإنسانية.

يقول **أحمد بن مصطفى** الشهير بطاش كبرى زاده في كتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» (في موضوعات العلوم) ـ الجزء الأول ـ: «علم التاريخ هو معرفة أحوال الطوائف، وبلدانهم، ورسومهم وعاداتهم، وصنائع أشخاصهم، وأنسابهم ووفياتهم، إلى غير ذلك. وموضوعه: أحوال الأشخاص الماضية، من الأنبياء والأولياء، والعلماء والحكماء والشعراء، والملوك والسلاطين وغيرهم. والغرض منه: الوقف على الأحوال الماضية. وفائدته: العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب، بالوقوف على تقلبات الزمن، ليتحرز عن أمثال ما نقل من المضار، ويستجلب نظائرها من المنافع، وهذا العلم كما قيل: عمر آخر للناظرين، والانتفاع في مصره بمنافع تحصل للمسافرين».

عندما أشرق الإسلام بدأ العرب يبحثون عن طريقة تاريخية ثابتة، لهذا جمع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب قادة الفكر حينئذ ليدرسوا الوضع عن كثب، فاختلفوا في آرائهم؛ فمنهم من اقترح أن يؤرخ من بداية بعثة الرسول ﷺ ، ومنهم من رأى أيضاً أن يستخدم تاريخ مولده أو تاريخ وفاته ﷺ ، والبعض الآخر استحب استعمال بداية هجرته ﷺ إلى المدينة؛ لأنها حدث عظيم، لذا أقر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب البدء في تطبيق التقويم الهجري، وذلك في العام الرابع من خلافته رضي الله عنه.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه «بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب»: «ووضع عمر بن الخطاب تقويماً ثابتاً هو التاريخ الهجري، فأصبح عنصراً حيوياً في نشأة الفكرة التاريخية، ومنذ ذلك الوقت أصبح توقيت الحوادث (أو تأريخها) العمود الفقري للدراسات التاريخية. وقام عمر بن الخطاب بتأسيس الديوان أو سجل المحاربين وأهليهم حسب قبائلهم، وهذا أعطى الأنساب أهمية جديدة، وكان حافزاً إضافياً للاهتمام بدراسة الأنساب».

لاشك أن مؤرخي العرب والمسلمين هم الذين جددوا في الحركة التاريخية؛ لأنهم يعتقدون أن علم التاريخ مصدر ضروري لضبط الوقت والوقائع، والسبيل الناجح الرائع لدراسة مقومات الحضارة الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية. لذا يرجع الفضل لهم في تحديد عناصر علم التاريخ التي تشمل كلاً من الزمن والمكان والنفس البشرية. والمتواتر أن حكام العرب والمسلمين في القرون الوسطى كانوا يقضون وقتاً طويلاً في السماع لأخبار ملوك الأمم السابقة، لكي يتجنبوا هفواتهم ويستفيدوا من أساليب حياتهم الجيدة. لذا يظهر للقارىء أن علم التاريخ مجموعة من الأحداث المترابطة الخالية من التناقض والتفكك، ولقد مر علم التاريخ عند العرب والمسلمين بأربع فترات تاريخية هامة اعتمد عليها المؤرخون في دراساتهم؛ وهي فترة ماقبل القرن الثالث الهجري، والفترة الأخيرة ما قبل نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

يقول **كب** (H.A.R. Gibb) في كتابه «علم التاريخ» : «علم التاريخ ينطبق ـ باعتباره مصطلحاً من مصطلحات الثقافة العلمية ـ على تدوين الحوادث الحولية، كما ينطبق على تراجم الرجال وسيرهم لا على تاريخ شامل للثقافة العقلية بصفة عامة، وعلم التاريخ على هذا الاعتبار يتلخص تطوره عند العرب في أربع مراحل:

(١) من البداية إلى القرن الثالث للهجرة.

(٢) من القرن الثالث إلى القرن السادس.

(٣) من نهاية القرن السادس إلى بداية القرن العاشر.

(٤) من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر».

وخلاصة القول: يتضح للقارىء اللبيب أن علم التاريخ في الحضارة العربية والإسلامية تبلور من خلال السير والمغازي والأحاديث النبوية والروايات والأخبار، وأنه يستند تماماً على الزمن والناس. والمعروف لدى المؤرخين أن جماهير الناس مغرمون بقصص الأجداد التي تنم عن الصدق والأمانة والإخلاص. كما أن الثابت لديهم أن علم التاريخ غزير الفائدة وشريف الغاية، يحمل بصدق أحداث الأمم، ويفرح بدراسته الخاصة والعامة؛ لأنه الطريق الحقيقي للوصول إلى أخبار الأوائل، وهو بلا ريب الميدان العلمي الذي يعتمد على كل من التحقيق والنقد وربط الأسباب بالمسببات. والجدير ذكره أن علم التاريخ عند العرب والمسلمين لم يتأثر أبداً بالمصادر الأجنبية الملوثة، لذا نما وترعرع طبيعياً استجابة لحاجة المجتمع العربي والإسلامي.

نشأة علم التاريخ عند العرب والمسلمين:

كان تأثير العلوم الشرعية على الحركة التاريخية في صدر الإسلام عظيماً جداً، حيث اعتمد علم التاريخ على سير ومآثر كل من القضاة والفقهاء والمحدثين والمفسرين والزهاد والفضلاء والملوك والأمراء والنبلاء وغيرهم. لذا يتضح جلياً أن علم التاريخ أداة هامة لخدمة العلماء البارزين والحكام والسلاطين المتفرغين لنشر العلم، من هنا حرص الكثير من الناس على دراسة علم التاريخ دراسة دقيقة ليس فقط للثقافة، ولكن ليفهموا بجلاء المكانة التي وصل إليها أجدادهم. ولاشك أنه لولا علم التاريخ لانقطع حبل الوصل، ولضاعت جهود المخلصين من الحكام والسلاطين، ولمات ذكر الأوائل الأفذاذ الذين أبلوا بلاءً حسناً على كوكب الأرض. والحقيقة أن المؤرخ المجيد النزيه يشعر وكأنه معاصر لمؤسسة الحضارة الإنسانية عبر العصور؛ لأنه يحاول جاداً ويتجرد أن ينصح القادة والمفكرين بالابتعاد عن وسائل خراب البلاد وهلاك السكان، وصرف الثروة المالية في غير محلها؛ لأنه يعلم تماماً أسرار الماضي.

يقول **عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني** في كتابه «تاريخ اليمن» (المسمى: فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن): «علم التاريخ علم جليل المقدار، شهدت بفضله الآيات والأخبار، واعتنى بنقله الأثبات والأخبار، وأنفقوا في ذلك نفائس الأعمار، يطلع به العاقل على ما مرّ من الأعصار، فيزيده من الكياسة والاستبصار، بما حدث للأمم الماضية من الحوادث التي فيها عظة واعتبار».

وأضاف **شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي** في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» قائلاً: «فائدة التاريخ أنه يذكر فيه من أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم، وأخبار العلماء ومذاهبهم، والحكماء وكلامهم، والزهاد والنساك ومواعظهم، فهو عظيم الغناء ظاهر المنفعة، فما يصلح الإنسان به أمر

معاده ودينه وسريرته في اعتقاداته، وسيرته في أمور الدين، وما يصلح بـه أمـر معاملاته ومعاشه الدنيوي. وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملـوك وسياساتهم، وأسباب مبادىء الدول وإقبالها، ثم سبب انقراضها، وتدبير أصحاب الجيـوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحـوال الـتي يتكـرر مثلهـا وأشـباهها أبـداً في العالم، غزير النفع كثير الفائدة، بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله، وجرّب الأمور بأسرها وباشر تلك الأحوال بنفسه، وما أحسن قول علي بـن أبي طالب رضـي الله عنـه: (العقـل، عقـلان: مطبـوع ومسـموع، ولا ينفـع مسموع مالم يكن ثم مطبوع). ونحو هـذا مـا يقـع فيـه ذكـر ذوي المروءات والأجـواد والمتصفـين بالوفـاء ومحاسـن الأخـلاق، والمعروفـين بالشـجاعة والفروسية، وأنه أيضاً جم الفوائد، كثير النفع لـذوي الهمـم العاليـة والقرائـح الصافية، لما جبل عليه طباعهم مـن الارتيـاح عنـد سماعهم هـذه الأخبـار إلى التشبه والاقتداء بأربابها، ليصير لهم نصيب حُسن الثناء، وطيب الذكـر الـذي حرض عليه خلاصة البشر ﷺ ».

ويمتاز علم التاريخ عن فـروع المعرفـة الأخـرى بأنـه وحـدة متكاملـة واضحة المعالم يرتبط أولها بآخرها، لذا فهو الطريق السليم لتدويـن نشـوء وتطـور المجتمعـات المختلفـة. ومـن فوائـده الكشـف عـن مغـزى التسـابق السياسي والثقافي والعلمي بـين الأمـم. ولاشـك أن الإنسـان المتحضـر في أمس الحاجة إلى المنهج التاريخي الوافي، وذلك لكي يقيم حضارته الرائـدة؛ لأن علم التاريخ يُعتبر الميزان الفاعل والحس النوعـي للعقـل البشـري، إذن فهو حصيلة تفاعل الإنسان مع بيئته.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه «المؤرخون والتاريخ عند العرب»: «إن تقدم الشعوب مرهون باكتشاف شعورها التاريخي، فهو الذي يضعهـا في الزمـان ويجعلها تحـدد دورهـا في مسـار التـاريخ، وفي أي مرحلـة مـن التـاريخ تعيـش، فالشعور التاريخي هو شرط الوعي التـاريخي، ومـع نـزول الوحـي بـدأ الوعـي

التاريخي عند المسلمين؛ لأن الوحي وحده مصدر المعرفة الجديدة التي أخذها المسلمون كمعطي مسبق دون تساؤل أو نقاش، ومنها نشأت العلوم العربية بجوهرها الإسلامي ابتداءً من هذا المركز، وتجذرت بعد أن بدأ جمع القرآن مكتوباً في مصاحف، وبدأ جمع أحاديث الرسول في الإصحاحات، وبالتالي وضعت الأمة في التاريخ وبدأت الحضارة الإسلامية في التكون، هذه الأفكار التي جاء بها الإسلام شكلت المدماك الأول في بناء الدولة والحضارة الإسلاميتين، وكان للمعرفة التاريخية التي استجابت للمعطيات الجديدة، دور هام في جعل فكرة التاريخ محور النشاط والتطور في حياة المجتمع العربي المسلم».

لقد اعتمد علم التاريخ في الحضارة العربية و الإسلامية على العلوم الشرعية وليس السياسية؛ لأنه لم يقتصر على عرض إنجازات الحكام السياسية، بل قدم سجلاً حافلاً لإسهامات العلماء، ومن بينهم الفقهاء والمحدثون والمفسرون والشعراء والمثقفون، وعليه صار معروفاً لدى مؤرخي العرب والمسلمين أن نمو وازدهار الحضارة الإنسانية نتيجة مجهودات العلماء الذين كانوا يسهرون الليل ويحيون النهار في البحث والدراسة، والحقيقة أن مؤرخي العرب والمسلمين كانوا يعتقدون أن تاريخ العلماء أكثر أهمية عند الشعوب المختلفة، لذا ركزوا على هذا الجانب، وبلوروا معالمه، وأدوا الرسالة بصدق وأمانة في هذا المجال.

يقول **أحمد محمود صبحي** في كتابه «في فلسفة التاريخ»: «تحكمت في الفكر الإسلامي عدة عوامل جعلت المؤرخين فيه يؤرخون للحضارة لا للحكام، وأهم هذه العوامل:

أولاً: للقرآن الكريم الأثر الأكبر في تصور المسلمين للتاريخ.

ثانياً: ارتباط التاريخ الإسلامي في نشأته ارتباطاً وثيقاً بالحديث منهاجاً وموضوعاً وأشخاصاً، أما من حيث المنهج فقد تأثر التاريخ في نشأته بمنهج

رجال الحديث في الرواية والإسناد، وأما من حيث الموضوع فبالرغم من أنه بدأ بما يسمى بالمغازي، لم يكن البدء بغزوات الرسول التي تمثل الجانب العسكري وإنما بسيرته كرسول ﷺ .

ثالثاً: الإجماع، وهو المصدر الثالث للتشريع في الإسلام إلى جانب القرآن والحديث وفقاً لقول الرسول: «لاتجتمع أمتي على ضلالة»، وهذا يعني بالنسبة للتاريخ أن يرتفع فكر الأمة الإسلامية ممثلاً في علمائها في شتى فنون العلم، إلى مكانة تجعل أقوالهم وأفعالهم بدورهم جديرة بالتسجيل.

رابعاً: القصص الديني، فإنه جاء تدعيماً لأثر القرآن؛ أي أن يدور التاريخ حول الأنبياء لا حكام أو سلاطين، إنه حينما يذكر فرعون فمن حيث صلته بموسى، وهذا يعني أن الدين لا السياسة هو الذي اتخذ المحل الأول من الاعتبار، ومن ثم الصدارة في التاريخ».

وخلاصة القول: يبدو أن علم التاريخ عند العرب والمسلمين عمل أدبي رائع يهتم بالماضي الإنساني، ولكنه مرتبط تمام الارتباط بالمنهج الإسلامي، وأن المؤرخ باحث قادر على شرح تجارب الآخرين وفق عواطفه ونوازعه الشخصية في إطار قواعد وأسس حددها له كل من القرآن الكريم والحديث الشريف وإجماع العلماء المتخصصين في العلوم الشرعية. كما أثبت مؤرخو العرب والمسلمين عبر العصور أن الحركة الفكرية والعلمية لعلماء العرب والمسلمين جديرة بالدراسة والتحليل.

الحركة التاريخية عند العرب والمسلمين:

ومن مقومات الحركة التاريخية عند العرب والمسلمين تسجيل تطور الحضارة وعوامل سقوطها، والقدرة العلمية على التحليل والمقارنة، والاطلاع الواسع على جميع فروع المعرفة، بهذا تتضح الرؤية العلمية لما حدث على كوكب الأرض عبر العصور. ولاشك أن هذه الحيثيات تشكل النسق الضروري للوصول إلى الحقائق التاريخية المتوفرة. إذن نستطيع القول: بأن المعرفة التاريخية هي السمة الحقيقية للثقافة العامة.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه «الحضارة» (عالم المعرفة): «الحركة التاريخية هي حركة الكون وحركة الأرض وحركة الأحياء والناس على سطح الأرض، وما تستتبعه هذه الحركة الدائمة من تغيير دائم، وحيث إن الحركة والتغير مستمران منذ بدأ الله سبحانه الخلق إلى أن يطوي الأرض وما عليها، فإن التاريخ أيضاً متصل منذ الأزل إلى الأبد، وهو يشمل الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً، فكله تاريخ وكله ميدان عمل للمؤرخ، وهو نهر الحياة المتدفق الجاري المتجدد بما تأتي به منابعه وما تأتي به روافده».

لقد بذل مؤرخو العرب والمسلمين جهوداً عظيمة لرقي الحضارة الإنسانية، ولكن للأسف الشديد إن مؤرخي الغرب ومن بينهم بعض المستشرقين يعملون ليلاً ونهاراً لرفع ودفع القيم المادية البحتة، والتقليل من القيم الروحية في صنع مادة علم التاريخ. وهذه المبادىء الموسومة بخبث ودهاء تخضع لمنهج التفكير الغربي، وتناقض تماماً الأهداف العربية والإسلامية التي تعتمد على تعليل الأحداث، وتفسير الظواهر التاريخية في إطار العقيدة الإسلامية السمحاء. لذا فإن منهج مؤرخي العرب والمسلمين قد فتح في الأعماق نوافذ جديدة تشد بقوة إلى التعمق في الدراسة والبحث في علم التاريخ. لذا فإن الحركة التاريخية عند العرب والمسلمين

تمثل بوضوح أحسن وأجمل تعبير تاريخي، وتتألق عن دين عظيم وحضارة رائعة يحركها لقاء خلاق بين السماء والأرض.

يلخص **شاكر مصطفى** في كتابه «التاريخ العربي والمؤرخون» ـ الجزء الأول ـ العوامل الأولى التي سيطرت على الحركة التاريخية عند العرب والمسلمين قائلاً ما نصه:

«١ ـ الإسلام دين تاريخي الروح، يحمل في ذاته فكرة تاريخية عميقة، والعقيدة الإسلامية لا تعتبر نفسها جديدة ولكنها عريقة الجذور في التاريخ.

٢ ـ إن ما جرى ويجري من أحداث البشر على الأرض منذ بدأ الخلق إلى يوم القيامة، إنما هو قدر مقدور وخطة أرادها الله لمن خلق.

٣ ـ أعطت العقيدة الإسلامية تصوراً تاريخياً واضحاً للكون منذ الخلق حتى يوم القيامة. وربطت بين المبدأ والمنتهى بحلقات الأنبياء، وأعطت لمبدأ الخلق صورة لا تقل عنها وضوحاً صورة الآخرة.

٤ ـ ثم إن شؤون الحياة الدنيا هامة وأساسية في مصير الإنسان وآخرته.

٥ ـ ثم إن الإنسانية كلها واحدة.

٦ ـ ظهور الرسول الأعظم كان خطاً فاصلاً في مسيرة التاريخ.

٧ ـ وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن أساطير الأولين، ولا يعني ذلك الأسطورة الخرافية، ولكن ماهو مسطور لدى الناس؛ أي ليس بجديد ولكنه مؤرخ معروف من قبل.

٨ ـ انتزع الإسلام العرب من الإطار القبلي ومن الجو الوثني، ولهذا استخف بالأنساب وبقصص الأيام وبمثل الجاهلية، وبدلهم منها جواً ثقافياً آخر، ربطهم بسلسلة التاريخ الوجداني للبشرية.

٩ ـ قدم القرآن الكريم مادة تاريخية هامة وإن تكن مجملة وتكتفي بالإشارة واللمحة وتسمى بالقصص».

يتضح للقارىء مما تقدم أن علم التاريخ فن عظيم يحتاج إلى دراسة وتعمق بقصد العبرة والمنفعة؛ لأنه جم التجارب وحسن الغاية، يحتاج إليه جميع الناس في المعمورة، حيث يحمل أخبار الأمم ويهدي لفهم الحاضر بمختلف مناحيه، وعليه يتمكن الإنسان من معرفة أحوال ما قبله من الأجيال لكي يرسم برامجه المستقبلية. والجدير بالذكر لقد تعرض القرآن الكريم لأخبار الأمم القديمة وأحوالها بطريقة مقتضبة جداً، ليستفيد المسلمون منها في حاضرهم ومستقبلهم.

ولدى مؤرخي العرب والمسلمين القدرة النادرة على العرض التاريخي الجذاب، الذي يحمل التحليل والمقارنة والتجميع والنظرة الشاملة لبعض الأحداث المتشابهة. وهم الذين يعتقدون بصدق وأمانة أن علم التاريخ ليس فقط حصيلة أحداث خارجية فحسب، بل هناك القوى الداخلية التي تمثل العامل المهم في تخطيط مجرى التاريخ في حدود قواعد معينة عمادها مبادىء الدين الإسلامي. ولكن هذا المنهج الرائع لم يرض عنه المستشرقون النصارى، حيث يحاولون بكل ما يستطيعون أن يشوهوا تعاليم الإسلام وتاريخه المتميز في كتاباتهم المشبوهة.

يقول **ليو بولد فايس (محمد أسد)** في كتابه «الطريق إلى مكة المكرمة»: «لقد مال المفكرون والمؤرخون الأوربيون منذ عهود اليونان والرومان إلى أن يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الأوربي والتجارب الثقافية الغربية وحدها.. وهكذا فإن تاريخ العالم لايعدو أن يكون ـ في أعين الغربيين ـ تاريخاً موسعاً للغرب، وطبيعي أن النظر من هذه الزاوية الضيقة لابد أن يوقع العين على مشهد مشوه غير سليم.. وبالتالي أن طريقة الحياة الغربية هي النموذج الصحيح الوحيد، الذي يمكن أن يتخذ مقياساً للحكم على سائر طرائق الحياة، وأن كل مفهوم ثقافي أو مؤسسة اجتماعية أو تقويم أدبي يتعارض مع النموذج الغربي إنما ينتمي ـ حتماً ـ إلى درجة من الوجود أدنى وأحط».

وخلاصة القول: لقد مرت الحركة التاريخية عند العرب والمسلمين بتطورات كثيرة وأحداث صعبة ومعاناة شاقة، حتى وصلت إلى مستواها المرموق، والمعروف أن المؤرخ العربي المسلم في طبيعته يحب دائماً أن يبحث عن الحقيقة حتى لو تعرض في سبيل ذلك إلى منحنيات ومنعطفات عديدة، لذا استقام عوده واكتمل نضجه التاريخي، وبدأ يعمم ويستقرىء ويبرهن ويقنن بكل جدارة.

تمكن مؤرخو العرب والمسلمين من أن يعرضوا علم التاريخ ـ الذي كان حافلاً بالأعمال والمآثر والتضحيات ـ بطريقة حيوية تدل على دهاء وفطنة. والحقيقة أن علماء العرب والمسلمين بعقولهم الجبارة استطاعوا أن يقهروا الطبيعة وسيطروا عليها، ولولا إرادة الله سبحانه وتعالى، ثم جهودهم المتميزة لبقي الإنسان أقرب إلى الحياة البدائية، يجتر الخرافات والخزعبلات التي ورثها عن أجداده.

الوعي التاريخي عند العرب والمسلمين:

ينبغي على الباحث في علم التاريخ عند العرب والمسلمين أن يكون ملماً بمبادىء الدين الإسلامي إلماماً جيداً؛ لكي يتمكن من معرفة مجريات الأمور، وبهذا يستطيع بكل سهولة فهم العادات الفكرية والتقاليد الاجتماعية التي ينقب عنها. والمؤرخ المخلص هو الشخص الذي هدفه الأول والأخير الوصول إلى الحقيقة التاريخية الناصعة، لا طلب الحجج والبحث عن الأدلة التي تبرهن رأيه الخاص. وبهذه المناسبة تميز المؤرخ العربي والمسلم عبر التاريخ بأنه يصب جميع اهتماماته في المشكلات التاريخية، محاولاً معرفة عللها وأسبابها، معتمداً بذلك على الدليل العلمي القاطع والإنصاف البريء من الغرض والتحامل.

يقول **محمد رشاد خليل** في كتابه «المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره»: «لابد أن تتوفر في الباحث في التاريخ الإسلامي شروط خاصة لكي يكون مؤهلاً للبحث في هذا التاريخ، ذلك أن التخبط الذي حدث في فهم هذا التاريخ وتفسيره، إنما نجم عن فقدان الأهلية لدراسة هذا التاريخ، وأهم هذه الشروط هي:

(١) الإخلاص والتجرد، فقديماً أفسد الحاقدون على الإسلام الأخبار وزيفوها وصنعوها، كيداً للإسلام وطعناً فيه وفي أهله.

(٢) الخبرة باللغة العربية وأساليبها.

(٣) العلم الصحيح بالإسلام وعلومه الضرورية.

(٤) المعرفة الصحيحة بتاريخ العرب وحياتهم قبل نزول القرآن.

(٥) معرفة الحالة التي كانت عليها الأمم الأخرى قبل الدخول في الإسلام، وهذه هي جملة الشروط الأساسية الضرورية التي لابد من توافرها للوصول إلى فهم صحيح للتاريخ الإسلامي».

استمد مؤرخو العرب والمسلمين وعيهم التاريخي من مصادر مختلفة في مقدمتها كل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والرواية، لذا يتضح للقارىء اللبيب أن الماضي هو مادة الحاضر والسبيل المشرق للمستقبل، ولا ينكر هذا المبدأ إلا إنسان على سمعه وقلبه غشاوة. لقد تميز تفكير العرب والمسلمين بأنهم ينظرون نظرة شاملة للكون، محللين أسسه وعوارضه بكل ذكاء ودهاء، مع تقيدهم بشريعة الإسلام التي تُعتبر نبراسهم في جميع أعمالهم على كوكب الأرض، لذا كان علم التاريخ عندهم عبارة عن إناء لجذور الأمة ومكونات شخصيتها ومنهجها عبر الزمان والمكان، وعليه تكونت الدولة العربية والإسلامية المرموقة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

لقد تحدث **شاكر مصطفى** عن العوامل الأولى التي بلورت الوعي التاريخي عند العرب والمسلمين في كتابه آنف الذكر قائلاً مانصه: «..

(١) شعر المسلمين منذ الأيام الأولى أن الإسلام كعقيدة غير مسيرة الإنسانية الدينية، وأعطاها مساراً جديداً ودخل بها في طور مختلف، وهذا الحديث يستحق التسجيل في دقائقه لفهمه وإعطائه شأنه الإنساني.

(٢) وبالمقابل فقد ظهرت في العالم دولة إسلامية كبرى وغيرت مسيرته التاريخية والسياسية، وفتوحها الصاعقة ثم سيطرتها السياسية، وجديدها الحضاري لم تفاجيء الشعوب الأخرى فقط، ولكنها ألغت الدول الكبرى التي كانت لقرون طويلة، في ما يسمى بالعصور القديمة، تسير شؤون العالم وبرزت وحدها بدلاً منها.

(٣) إن التجارب الإنسانية والأمثلة أساسية في التوجيه إلى السلوك الطيب وفي التقويم الخُلقي، ومستودع تلك التجارب هو التاريخ الذي يجب أن يمشي أمام الإنسان مصباح هدي، لا وراءه، باعتباره في المطاف الأخير تعبيراً واقعياً عن إرادة الله وهدايته، وهذه التجارب الإنسانية هي بدورها

أساس في الثقافة الفكرية والسياسية . إنها هي المعرفة والعلم وكان تسجيلها وروايتها يشكلان جانباً حيوياً من التطور الثقافي للجماعة الإسلامية.

(٤) ومهما بالغنا في تقصي العوامل النفعية أو الدينية وراء ظهور التاريخ، فإنا لانستطيع أن نغفل وجود الرغبة العلمية الخالصة أيضاً بين تلك العوامل، الرغبة في المعرفة لمجرد المعرفة والاطلاع، وهي بدورها حاجة فكرية إنسانية لا تغيب عن أي عمل علمي».

وهكذا انطلقت النزعة التاريخية عند العرب والمسلمين منذ بعثة المصطفى ﷺ؛ لأن الدين الإسلامي يحُث بشدة على التفكير والتأمل في كل زمان ومكان، لذا خلّص مؤرخو العرب والمسلمين التاريخ الإسلامي من الخزعبلات البالية، وبدؤوا بشحذ كل طاقاتهم العقلية والعقائدية واستجاشوا كل مالديهم من قوة وثقل لينطلقوا إلى آفاق التجديد والإبداع، وبهذا أعادوا صياغة التاريخ من جديد مقتدين بمنهج الدين الإسلامي الحنيف؛ لأن التاريخ الإسلامي ليس فقط فكراً وأحداثاً وظواهر اجتماعية وأوضاعاً سياسية، بل أيضاً هو عقيدة إسلامية شاملة، لها صفاتها وخصائصها ومقوماتها المتميزة.

يقول **ماهر عبد القادر محمد** في كتابه «التراث والحضارة الإسلامية»: «فعناصر القوة والأصالة في الحضارة الإسلامية مستمدة من الدين الإسلامي الحنيف الذي حثنا على التفكير والتأمل في كل زمان ومكان. فحين نزل القرآن أعلن أنه قد نزل بالحق للناس جميعاً، وهنا رسم للناس قواعد الحياة العملية وقواعد الفكر والنظر، وصوَّر لهم الكون أبلغ تصوير، فكان بذلك دستور المسلمين وروح حضارتهم، وبجانب القرآن الكريم وجدنا السنة النبوية التي تمثل كل ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير، فصار كل من الكتاب والسنة منهجاً للسلوك القويم. لقد انطلق المسلمون في شتى بقاع المعمورة يحملون القرآن والسُّنة ليخلصوا العالم من الفساد. ويأخذوا بيد الإنسانية إلى طريق الحضارة، حتى كان القرن الثاني

الهجري الذي شهد من الإنجازات والابتكارات ما تعجز الأقلام عن وصفه.. إنه عقلية مبدعة، وفكر ناضج، وبصر نفاذ، وفن رائع، وفلسفة شامخة، إلى غير ذلك وأكثر نلتقي به منذ بداية القرن الثاني الهجري».

وخلاصة القول: إن البحث في علم التاريخ يزيد تكوين الباحث الملتزم تبصراً بتراثه الفكري والحضاري، ويعطيه القدرة العالية على اكتشافه ومعرفة أسراره، وهكذا كان المؤرخ العربي والمسلم يشرح تجاربه وحصيلته الثقافية للآخرين بكل حيوية، ووضوح وفق وعيه التاريخي الذي أسس على المثل الراقية والفضائل والأمانة.

obeikandl.com

حقيقة التاريخ العربي والإسلامي:

اعتمد علم التاريخ عند العرب والمسلمين اعتماداً كلياً على العقلية الناقدة الرافضة للخزعبلات والأساطير البالية، وعليه فهو لديهم عبارة عن حلقات ثقافية مترابطة لتجربة الإنسان على كوكب الأرض منذ الأزل، من هنا نستطيع القول: إن علم التاريخ هو حركة الزمان، حيث إن الزمان في طبيعته هو الذي يحدث التغير، لذا بدراسة الماضي نعرف عن كثب الحاضر مما سيقود إلى التوجه للمستقبل.

يقول **قاسم يزبك** في كتابه آنف الذكر: «التاريخ علم يبحث فيه عن حوادث البشر في الزمن الماضي وهو من أهم العلوم التي يفتقر إليها الإنسان؛ لأنه بمعرفته أمور جنسه يعرف نفسه. قال أحد الفلاسفة: أعظم أمر يبحث عنه الإنسان هو الإنسان، فيه يتحقق على قدر الطاقة: مصدره واختياره وغايته القصوى وشأنه في هذه الأرض. وليس التاريخ مجرد سرد الأحاديث وأنباء الحوادث فقط، وإنما يتضمن ذكر ذلك مع تعيين أوقاته وبيان أسبابه، فيعرف منه سبب ارتقاء الإنسان وانحطاطه وعلل سعادته وشقائه على توالي الأيام والسنين إلى غير ذلك من الفوائد الكثيرة. وقال مصطفى لطفي المنفلوطي: (من يعرف التاريخ العام الذي سبقه يضيف إلى عمره عدد سنوات ذلك التاريخ)».

المؤرخ العربي والمسلم هو الذي استنكر بشدة أن يكون علم التاريخ وعاء لسرد المعارك الحربية والاتفاقات السياسية وقيام الدول وتعاقب السلاطين على حكمها، بل حاول أن يجعله الطريق الواضح الجلي لتحرير الإنسان من العبودية والاستكانة وأسرار نشاطاته العلمية التي ساعدت على رفاهيته، لذا فالمؤرخ العربي والمسلم هو الذي تمكن بجدارة من تعريف علم التاريخ بأنه الطريق السوي للكشف عن التقدم التقني والفكري.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «وقد احتاج التاريخ في الغرب إلى قرون طويلة لكي تظهر شخصيته، ويستقل ويقوم علماً كاملاً له أصوله ومناهجه وقواعده. أما عند المسلمين فقد ولد من أول الأمر علم مستقل الشخصية واضح الخصائص؛ لأنه نشأ على نفس الأصول التي قام عليها علم الحديث وهو الضبط والدقة والأمانة وتحري الصدق، فقد بدأ التاريخ عند المسلمين بالسيرة النبوية وهي في ذاتها حديث نبوي طويل؛ لأن الحديث كل ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو استحسان أو إقرار».

وحقيقة علم التاريخ التي لا تحتاج إلى برهان أنه علم تضاف إليه معارف من مصادر متنوعة لا يؤخذ منه. فعلى سبيل المثال: تجاربنا الإنسانية والعلمية الحالية ستكون تاريخاً فيما بعد للعصور القادمة، لذلك سوف يبرز بوضوح للأبناء والأحفاد عناصر علم التاريخ الظاهرة والباطنة وسيستفيدون منها في حياتهم اليومية إن شاء الله، ومن المؤسف حقاً أن هناك مجموعة من الناس الضالة في هذه الأيام لا يتحمسون لمعرفة ماضيهم، بل يفخرون وبإصرار على جهلهم التام في تاريخ أمتهم، وهذا عائد لعدم دراستهم لهذا الفن الرائع دراسة علمية. وعليه أعتقد من الضروري جداً أن يدرس علم التاريخ في جميع مراحل التعليم، على أن يركز في ذلك على النواحي التقنية والثقافية، ويقلل من سرد الملابسات التاريخية.

يقول **عبد اللطيف شرارة** في كتابه «الفكر التاريخي في الإسلام»: «تنحصر القضايا العلمية الوثيقة الصلة بالتاريخ في الزمان والمكان والنفس البشرية. أي في الفلك والجغرافية وشؤون المنطق (الرياضيات) والطب على أنواعه. وينقل في بيان الفائدة من التاريخ قول الإمام الشافعي: (علم التاريخ يزيد العقل)، ويفيد في ضبط الأوقات والأحوال عما يحصل بسبب الكذب فيه من الاختلال، كما ينقل كلام ابن الدبيغ: (لولا التاريخ لقال من شاء ما شاء). وحديث حسان بن زيد: (ألم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ)،

وأخيراً يوضح الغاية من التاريخ أنه يوقفنا على أخلاق الأنبياء في هدي رسالتهم، وأحوال الخلفاء والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء بهم في ذلك لمن يرويها في أحوال الدين والدنيا، ويطلع طلع حقائق الأمور غنية بالتصريح عن الرموز والكنى.. فهو كالمرآة الصقيلة من نظر فيها، كشفت له عما لا يحسن عنده، أو يقول باستحسانه، ويصير بمعرفة من تقدم بمنزلة من شاهد المغيبات بعناية ولولاه لأصبحت المآثر وهن دواثر، ورسل المكارم ليس لها معالم، ومناهل المحاسن ذات ماء آسن، فلم يزل الخلف متطلعين لأخبار من سلف، ومتتبعين لزهرات محاسنهم التي تقتطف لتقتفي آثارهم فيما كان لهم من الأفعال الحميدة، وينشر ما طواه الدهر من مآثر فضائلهم العديدة».

وخلاصة القول: إن الفكرة الشائعة حول أن العلوم المساعدة لتقدم علم التاريخ، منحصرة في كل من الدين والاقتصاد والجغرافية غير صحيحة؛ لأن جميع فروع المعرفة تعتبر من عناصر هذا العلم الحيوي. حيث إن علم التاريخ يهتم بالنشاط الإنساني بوجه عام. والحقيقة الواضحة أن علم التاريخ يمثل ذاكرة الشعوب؛ لأنه يحتوي على التكوين المتراكم بقيم الأمم وعاداتها وتقاليدها وثقافتها.

لاشك أن علم التاريخ يُعتبر بحث السجل الأمين للخبرات البشرية عبر العصور، وليس كما يدعي بعض المؤرخين المتطرفين أن مكوناته الظواهر الاجتماعية والأوضاع السياسية. الصحيح أن علم التاريخ تصور شامل لثمرة العقل الإنساني له سماته وخصائصه ومقوماته المرموقة. والمعروف أن كل أمة تأخذ عن الأخرى ما يتلاءم وطبيعة تكوينها ومتطلبات حياتها. لذا الآن نستطيع أن نقول: إن علم التاريخ يعصمنا عن أن نتوهم بل يثبت لنا (أمة العروبة والإسلام) أننا ورثة أمجاد حملت قنديل الحضارة الإنسانية فترة طويلة جداً من الزمن، فعلينا أن ندرسه بصدق وأمانة لكي نقدمه في ثوبه الجديد لأبنائنا الذين هم أمس الحاجة إلى معرفة محتواه في هذه الأيام الصعبة.

فلسفة التاريخ

عند مؤرخي العرب والمسلمين:

لقد تبنى مؤرخو العرب والمسلمين فكرة فلسفة التاريخ؛ لأنها لا تقف عند فترة معينة ولا مجتمع معين، بل إنها تجمع العالم كله بإيجابياته وسلبياته في بوتقة واحدة من الماضي السحيق إلى اللحظة التي يحاول فيها المؤرخ أن يسجل ويحلل معلوماته المتنوعة، لذا يستطيع المؤرخ النبيه أن يتجنب الجزئية التاريخية ويتجه إلى عالمية التاريخ، مهتماً في تخليص الفكر الإنساني من الخرافات والأساطير ومركزاً على التنوير والتطوير الذي يخدم الإنسانية بوجه عام. والحق أن المؤرخ العربي والمسلم أخرج التاريخ من طور الروايات والخرافات إلى منهج البحث والتنقيب والاستقصاء، ولذلك خدم علم التاريخ الدراسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية والعلمية.

يقول **أحمد محمود** في كتابه «في فلسفة التاريخ»: «فلسفة التاريخ لا تعوض قصور التاريخ فحسب، بل إنها تعوض قصور الفلسفة أيضاً، تعاني الفلسفة من قلق دائم مصدره اشتياق الفيلسوف إلى الوصول إلى الحقيقة فهو دائب البحث عنها، ولكنه يخشى أن يضل السبيل إليها وهو محلق في عالم المجردات، وهذه لفرط تجريدها تفلت دائماً من الإنسان فلا يستطيع الإمساك بها، ومن ثم فإن فيلسوف التاريخ يلتمس مادته من واقعية التاريخ. يشد التاريخ إلى فلسفة حتى لا تحلق بعيداً في غير عالمنا، وترتفع الفلسفة بالتاريخ حتى لا يغوص في وحل الماضي ودمائه، يلتمس التاريخ من الفلسفة الحكمة والمغزى، وتلتمس الفلسفة من التاريخ الواقعية، كلاهما يكمل في الآخر قصوراً، ومن ثم كان الزواج بينهما قائماً رغم معارضة الأهل من فلاسفة ومؤرخين».

تعتمد فلسفة التاريخ عند مؤرخي العرب والمسلمين اعتماداً كاملاً على التجديد، والحفاظ على الاستمرارية، واعتناق الجدلية النزيهة واضحة المعالم،

وليس كما يدعي مؤرخو الغرب أن التاريخ عند العرب والمسلمين عبارة عن مسلسل زمان وحوادث لا تعين إطلاقاً على فهم واقع الأمة الحقيقي. إن التاريخ الإسلامي بالنسبة للعالم العربي والإسلامي المعاصر يشبه الذاكرة المتوقدة التي لا يمكن أن يفقدوها، ويقسم لهم البقاء بأمن وسلام على كوكب الأرض، بل بدون هذه الذاكرة سيعيشون مضطربين مهزوزي الكليات.

يساعد التاريخ الإسلامي شباب الأمة العربية والإسلامية على فهم ذاتهم، وبه يستطيعون أن يجعلوا الماضي قنديلاً متوهجاً يضيء خناق الحاضر وطريق المستقبل؛ لأن الإنسان في طبيعته يتعلم من الماضي. ولاشك أن مؤرخي العرب والمسلمين قد قدموا خدمة جليلة للمعرفة التاريخية، وذلك من خلال منهج الإسناد الذي استخدموه لعلم الحديث.

يقول **محمد الطالبي** في مقالته التي بعنوان: (التاريخ ومشاكل اليوم والغد)، والتي نشرت بمجلة عالم الفكر سنة (١٣٩٤ هجرية) مانصه: «إن العرب قد لعبوا دوراً حاسماً في تقديم العلوم التاريخية، وكان دورهم في عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الأمم الأخرى. فعن طريق منهجية الحديث أدخلوا في التاريخ الاعتناء بالموضوعية، والتأكد من صحة الأخبار المروية، بفضل قواعد الجرح والتعديل والاعتناء بنقد السند والرجال؛ أي بما نسميه اليوم النقد الخارجي، وبهذا جعلوا من التاريخ علماً حقاً ذا جدية ومنهجية، وكذلك قد حاولوا أن يخرجوا به من حدود الإقليمية الضيقة إلى حدود أوسع، هدفها أن تشمل العالم المتحضر المعروف في زمانهم».

وخلاصة القول: إن الكثير من علماء العرب والمسلمين يعتقدون أن الفلاسفة لم يوجهوا اهتمامهم للتنقيب والاستقصاء عن الحقيقة الصافية، بل تاهوا في زوايا المجالات العقلية، لذا اتهموا معظم الفلاسفة بالزندقة، وهذا أمر صعب الهضم والقبول. الآن أعداء الإسلام يعملون بجد وتفان ليبلوروا هذا الاعتقاد الباطل بهدف إبعاد شباب الأمة العربية والإسلامية عن دراسة علم

الفلسفة الذي سيساعدهم على استيعاب الحقائق التاريخية الناصعة التي تُعتبر بحق عصب علم التاريخ عبر العصور.

لا شك أن هذه الحرب الضارية ضد علم الفلسفة جعلت معظم المفكرين في العالم العربي والإسلامي يبتعدون عن دراسة هذا العلم الحيوي والهام. وفي رأي المؤلف يجب أن يكون علم الفلسفة ساحقاً وشامخاً في مجال علم التاريخ الذي يحتاج إلى تحليل.

والحقيقة أن علم الفلسفة يجعل العقل في ضوء المعرفة المتوفرة له أن يعمل على تحسين المصير وتجنب السوء؛ إذن فالفلسفة هي الطريقة للتدريب والتمرس والربط بين الأسباب والمسببات في هذه الدنيا الفانية.

والحقيقة الواضحة أن المعرفة التاريخية هي عملية تربوية، وعلم التاريخ بفلسفته هو الوسيلة المثلى لتحقيق ذلك، لذا يجب أن يدرس هذا العلم بطريقة علمية ومنطقية؛ لكي نتفادى سوء المصير ونحقق المطلوب؛ لأن الإنسان خليفة الله على الأرض، وصدق من قال: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

القرآن الكريم مصدر لكل من التشريع الإسلامي والتاريخ الإسلامي

لقد فقدت جميع الأديان السماوية السابقة للإسلام من حيث الزمن قيمتها الشرعية والتاريخية؛ لأن أهل هذه الأديان البالية عبثوا بها عبثاً شديداً، حيث حرّفوا كلام الله سبحانه وتعالى حسب أهوائهم المغرضة، لذا انهار بنيان دينهم من أساسه.

من المؤسف حقاً أن بعض المؤرخين المعاصرين في العالم يأمرون طلابهم الأبرياء أن يدرسوا كلاً من التوراة والإنجيل المحرفين، ليصبحا مرجعين هامين في بحوثهم التاريخية، وهذا منهج خطر للغاية، فالواجب أن يوجه طلاب، علم التاريخ لدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة ليكونا المصدرين الرئيسين لدراساتهم التاريخية، لأنهما لم يعبث بهما على الإطلاق.

يقول **أنور الرفاعي** في كتابه «تاريخ العلوم في الإسلام»: «القرآن الكريم دستور المسلمين ومصدر تشريعهم الرئيسي، أكثر آياته المدنية هي آيات تشريعية بحثت في الأمور الدنيوية، ونظمت علاقات الفرد بالمجتمع وبالحكومة، وتعرضت لأمور البيع والشراء والزكاة وأنواعها والعائلة وأساسها وماشاكل ذلك، والقرآن كلام الله لا تغيير فيه ولا تبديل. والتشريع الإسلامي على هذا تشريع إلهي بعكس التشريعات الوضعية الأخرى. القرآن الكريم وضع الخطوط الرئيسة في التشريع الإسلامي ولم يتعرض للتفصيل فيها، وترك كثيراً من الأمور للظروف المواتية، وكان الرسول عليه السلام في حياته يُفسر ما جاء مجملاً في القرآن ويحل المشاكل التي تعرض له».

المعروف لدى المؤرخين في المشرق والمغرب أن القصص الإسرائيلية من أوسع القصص التاريخية ولها مكانة كبيرة منذ أمد طويل عندهم، ولكن

المشكلة الكبيرة تكمن في أن هذه القصص وقع عليها تحريف خطير، ولذا من الصعب جداً الاعتماد عليها، لذا الواجب على المؤرخين الأمناء محاربتها، والتنويه بطرق علمية أنه لايوجد على ظهر الأرض شيء له دعامات قوية وواضحة مثل الإسلام في القرآن الكريم كلام الله جل وعلا، لم يدخل عليه أي تحريف منذ نزوله على سيد البشرية نبينا محمد ﷺ إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. والجدير ذكره أن في كتاب الله القرآن الكريم استعراضاً مفصلاً لأخبار الأمم السابقة.

يقول **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه آنف الذكر: «ففي القرآن الكريم ذكر لبعض مظاهر حياة العرب السياسية والاقتصادية والدينية، وفيه ذكر لبعض أخبار الشعوب البائدة (عاد وثمود)، وفيه أخبار أصحاب الفيل (أبرهة الحبشي وجيشه)، وسيل العرم (وهو السيل الذي أصاب سد مأرب)، وأصحاب الأخدود (أهل نجران الذين أحرقهم ذو نواس الحميري في أخاديد)، هذه الأخبار أوردها الله تعالى في كتابه العزيز عبرة وموعظة للعرب بما أصاب الله الشعوب البائدة من قصاص لتكذيبهم الرسل والأنبياء، وقد أثبتت الحقائق التاريخية الثابتة والكشوف الأثرية صحة ما جاء في القرآن الكريم من أخبار العرب البائدة ودقتها. ومن المعروف أن الشعوب العربية انقرضت لعاملين: الرمل الزاحف الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة العربية وفي الأحقاف، وهياج البراكين وما ترتب عليه من تدمير شامل لمدن كانت مزدهرة».

لقد حثنا كتاب الله القرآن الكريم على عدم التصديق بكل ما ورد في الكتب السابقة على القرآن، قال جلت أسماؤه: ﴿يا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]، ولا ريب أن هذه الآية وغيرها كثير توضح بجلاء التحريف

الذي قام بـه اليهـود والنصـارى حيـال كتابيهمـا التـوراة والإنجيـل. والجديـر بالذكر أنه تواتر عند المؤرخين أن هناك أعداداً كبيرة من الأناجيل التي كتبـت بعد رفع عيسى ابن مريم عليه السلام بمدة طويلة، وهذا بالضبط الذي حـدث للتوراة، فقد دوّنهـا اليهـود بكميـات هائلـة بعـد موسـى عليـه السـلام بزمـن طويل، لذا احتـوى كـل مـن التـوراة والإنجيـل علىالكـلام المنكـر والقصـص الفاسدة والخرافية والشرك بالله سبحانه وتعالى، لذلـك قـال رسـول الله ﷺ محمد بن عبد الله: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولـوا آمنـا بـالله وما أُنزل إلينا». أما القرآن الكريم فقد دوّن ورتّب خلال فترة خلافة كل من أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

تقول **سيدة إسماعيل كاشف** في كتابها آنف الذكـر: «ويظهـر أن الجمـع الأول للقرآن بعد رسول الله ﷺ كان في حياة أبي بكر الصديـق، إذ يـروى أن عمر بن الخطاب خشي ـ بعد مقتل قسم كبـير مـن القـراء في الحـرب مـع مسيلمة الكذاب ـ أن يقتل قراء آخرون في معـارك أخـرى فيضيـع شـيء مـن القرآن، ولذا اقترح على أبي بكر الصديق جمع القـرآن وأقنعـه بوجهـة نظـره، وترى أغلب الروايات أن أبا بكر عهد بذلك إلى زيد بن ثابت كاتب الوحـي للرسول ﷺ ، وقد أتم زيد هذا الجمع من سور مكتوبة على العسـب وعلـى الأحجار وعلى قطع من الجلد وعلى صحف (أي أوراق متفرقة) ومن صدور الرجال، ولما أتم جمع القرآن أعطى نسخة لأبي بكر وقد خلفها أبو بكر لعمـر ابن الخطاب الذي تركها بدوره عنـد ابنتـه حفصـة زوج الرسـول ﷺ ، أمـا جمع القرآن النهائي فقد تم في عهد عثمان بن عفان».

وخلاصة القول: لقد حفظ القـرآن الكريـم اللغـة العربيـة مـن الضيـاع، حيث حصلت اللغة العربية بفضل القرآن الكريم على قـدر كبـير مـن المناعـة تمكنت بذلك أن تحافظ على وجودها حتى في أقسى فترات الضعف والظـلام الذي مرت به الأمة العربية والإسلامية.

القرآن الكريم هو الكتاب المنزل الوحيد الذي وصل إلى الإنسان محتفظاً بدقته وضبطه. وقد نزل منجماً خلال ثلاث وعشرين سنة يحث الإنسان على التمسك بالإسلام، وفيه توضيح لنظمه كي يثبتها في نفوس المسلمين الذين كانوا في أمس الحاجة إلى ذلك.

obeikandl.com

علم الحديث مصدر لكل
من التشريع الإسلامي والتاريخ الإسلامي

الحديث هو علم يقصد به كل ماصدر عن صفوة الخلق رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. وقد تلقى البشر الحديث عن طريق صحابة رسول الله رضي الله عنهم، ولاسيما القريبين منه مثل السيدة عائشة زوجه، وعمر بن الخطاب وأبي هريرة. حاول جماعة من الصحابة تدوين الأحاديث النبوية في عهد الخليفة الراشد أبي بكر رضي الله عنه، ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اعترض على ذلك بشدة خوفاً من التباس الحديث بالقرآن الكريم، لذا ظل الحديث محفوظاً في الصدور ويتناقلونه شفاهاً، وإن كان هناك مجموعة تقول: إن بعض الأحاديث دوّنت في صحائف تعرف بصحائف الحديث، واستمر الوضع إلى أن أمر الخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) بجمع الحديث وكتابته من صدور الحفاظ، ومن هنا بدأت الحركة التاريخية في العالم العربي والإسلامي انطلاقتها الفصلية معتمدة على المنهج العظيم الذي ابتكره المحدثون لجمع الأحاديث صحيحة الإسناد.

يقول **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه آنف الذكر: «أما الحديث، وهو المصدر الثاني للشريعة الإسلامية؛ لأنه يتضمن أحكاماً وقوانين للمجتمع الإسلامي المتطور، فيُعتبر أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم، على الرغم من أن الحديث لم يدون بالفعل إلا في أواخر القرن الثاني الهجري في خلافة عمر بن عبد العزيز؛ لأن الأحاديث كانت تحفظ في صدور الرجال أو تكتب في صحائف متفرقة، والحديث يمثل أقدم الروايات الشفوية التي وصلت إلينا عن طريق التدوين وأدقها، لاعتماده على الإسناد، ثم إن الأحاديث كانت تتعرض لكل ما كان قائماً من نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الدولة العربية الإسلامية».

عندما نفحص بدقة ثاقبة وبعقل وحكمة المصادر التاريخية، نجد أن علم الحديث الموروث عن سيد البشر محمد بن عبد الله ﷺ يحتوي على منهج متكامل لعلم التاريخ الإسلامي، حيث يستند على الأحاديث صحيحة العنعنة الصادرة عن رسول الله ﷺ ، والتي لاتقبل الفروض والظنون والأوهام الصادرة عن الشيطان وأعوانه. والجدير بالذكر أن علماء الحديث اتبعوا أحسن وأصدق منهج علمي لتدوين وتدريس علم الحديث. ولقد جاء في علم الحديث الإشارة إلى مجموعة من القواعد التاريخية التي تمد الباحث اللبيب بالسعة والشمول في النظرة التاريخية، ولذا فقد اهتدى مؤرخو العرب والمسلمين إلى التصورات والمفاهيم التي على ضوئها استطاعوا أن يفسروا الأحداث التاريخية الخطيرة.

يقول **مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة** في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» : «أما مبدأ جمع الحديث وتأليفه وانتشاره فإنه لما كان من أصول الفروض وجب الاعتناء به والاهتمام بضبطه وحفظه، ولذلك يسر الله سبحانه وتعالى للعلماء الثقة الذين حفظوا قوانينه، وأحاطوا فيه فتناقلوه كابراً عن كابر، وأوصله كما سمعه أول إلى آخر وحببه الله تعالى إليهم لحكمة حفظ دينه وحراسة شريعته، فما زال هذا العلم من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام أشرف العلوم وأجلّها لدى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين خلفاً بعد سلف.. حتى لقد كان أحدهم يرحل المراحل ويقطع الفيافي والمفاوز ويجوب البلاد شرقاً وغرباً في طلب حديث واحد ليسمعه من راويه، فمنهم من يكون الباعث له على الرحلة طلب ذلك الحديث لذاته، ومنهم من يقرن بتلك الرغبة سماعه من ذلك الراوي بعينه، إما لثقته في نفسه، وإما لعلو إسناده، فانبعثت العزائم إلى تحصيله، وكان اعتمادهم أولاً على الحفظ والضبط في القلوب غير ملتفتين إلى ما يكتبونه، محافظة على هذا العلم كحفظهم كتاب الله سبحانه وتعالى (القرآن الكريم)، فلما انتشر الإسلام

واتسعت البلاد وتفرقت الصحابة في الأقطار، ومات معظمهم وقل الضبط احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة».

وخلاصة القول: بقي علم الحديث من أهم المصادر لعلم التاريخ الإسلامي عبر العصور، فقد اجتهد علماء الحديث فقسموا العمل إلى قسمين رئيسين: القسم الأول: اهتم بالأحاديث التي تتعرض لشؤون الحياة والمعاملات والعقائد، أما القسم الثاني: فقد تناول الأحاديث التي تتعلق بالأحكام (الاستنباطات الفقهية). وهكذا رتب هؤلاء العلماء الأجلاء الأحاديث النبوية بطريقة علمية رائعة، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

obeikandl.com

المنهج التاريخي
عند العرب والمسلمين

لقد بدأ علم التاريخ بداية متواضعة وبطيئة، لذا كان منهجه غير واضح وخاضعاً لانفعالات واجتهادات شخصية، علماً بأن المؤرخين الأوائل كان لديهم الاعتقاد بأن الإنسان لايمكن أن يعرف نفسه تماماً دون أن يعرف ماضيه. من هنا اهتم العرب والمسلمون بعلم التاريخ، وعملوا منه دراسات اجتماعية وسياسية وفكرية نافعة تعين الأمة على فهم نفسها وغيرها من الأمم، لذلك أصبحوا يملكون منهجاً تاريخياً رائعاً تقمصه العالم المتحضر في زمانهم.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وحينما أخذ الإنسان البدائي منذ فجر المدنية يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجة بأساطير ومعتقدات، بدأ التاريخ يظهر إلى حيز الوجود في صورة بدائية أولية، وبدأ الاحساس به يتكون في ذهن البشرية منذ أقدم العصور، وتدرج التعبير عن التاريخ مختلطاً أولاً بعناصر من الفن، كالرسم والنقش على الحجر، وعندما سارت البشرية قدماً في مضمار الحضارة في شتى أساليبها وصورها، رويداً رويداً، أخذ التاريخ يشكل أساساً جوهرياً في تسجيل موكب البشرية الحافل الدؤوب، إذ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذي يقدم لنا ألواناً من الأحداث وفنوناً من الأفكار وصنوفاً من الأعمال والآثار.. ومعرفة الماضي تكسبه خبرة السنين الطويلة، والتأمل في الماضي يبعد الإنسان عن ذاته، فيرى مالا يراه في نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه، ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه، وأقدر على حُسن التصرف في الحاضر والمستقبل».

في باديء الأمر تبنى مؤرخو العرب والمسلمين طريقة إسناد الروايات إلى أصحابها مهما طال ذلك وصعب، مما قادهم إلى التعمق في دراسة التراث التاريخي، وهذا أمر محبب إلى نفس كل عربي ومسلم. ولاشك أنهم استفادوا

من منهج علماء الحديث في بحوثهم التاريخية؛ لأن علماء الحديث كانوا يركزون على التحقق من الخبر المنقول عن رسول الله ﷺ . والجدير ذكره أن مؤرخي العرب والمسلمين حافظوا على منهج الإسناد الذي ورثوه من علماء الحديث مع الاعتناء بالوثائق المكتوبة وشرحها وتبين قيمتها التاريخية واستخدامها في التخطيط.

يقول **عبد المنعم ماجد** في كتابه «مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي» : «لجأ المؤرخون الأوائل إلى تدوين ما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان عن الحفاظ الموثوق بهم وهو ما يعرف بالأسانيد. فكان الحفاظ هم الوسطاء بين الحقيقة التاريخية والمؤرخ. وهذه الطريقة عينها في التاريخ كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية، مما يبين أن التاريخ أخذ طريقة الحديث في أول تأليف، بل إن التاريخ كان يجمع من نفس رواة الحديث».

يمد التاريخ المؤرخ بحيثيات كثيرة تمكنه من معرفة الماضي وما يدور في نفسه كما يدعي البعض. والحقيقة أنه يساعدنا مساعدة ملحوظة في فهم واقع الأمة. ولذا استطاع المؤرخ العربي والمسلم بجدارة أن يتحرى ما سيحدث في المستقبل بطريقة علمية رائعة. ولاشك أن المعرفة التاريخية تعتمد اعتماداً كلياً على المادة التاريخية وعقل المؤرخ الناقد، وعليه صار للتاريخ منهج واضح المعالم عند العرب والمسلمين، ولذلك تمكنوا من وصف المؤرخ القدير بأنه الشخص الذي لديه القدرة على التحليل العلمي البعيد تماماً عن الأغراض الشخصية.

يقول **أحمد محمود صبحي** في كتابه آنف الذكر: «التاريخ بلا تعليل مجرد تقويم، فدراسة التاريخ هي دراسة أسباب، وإذا كان جمع المادة التاريخية يشكل الخطوة الأولى، فإن التعليل يشكل الخطوة الأخيرة الحاسمة في كتابة التاريخ، فالمؤرخ الحق هو الذي يقوم بتعليلات أصيلة لم يسبق إليها، وتكون مقنعة في تفسير أحداث التاريخ». وأضاف: «إن المنهج التاريخي الصحيح يجب أن يشتمل على الآتي :

(١) أن يعزل المؤرخ موضوعه زماناً ومكاناً عن سائر العصور والدول، كما يعزل العالم الطبيعي الظاهرة الطبيعية عما هو حولها من ظواهر.

(٢) أن يجمع المؤرخ أكبر قدر ممكن من الحالات والمعلومات المتعلقة بموضوع الدراسة، وأن يقوم بدراسة نقدية للوثائق، وتمثل هذه المرحلة التحليلية من البحث.

(٣) أن يقوم بعملية تركيبية لصياغة المادة التاريخية صياغة علمية، متجاوزاً مرحلة السرد والوصف إلى التعليل، مفترضاً أن الوثائق التاريخية معلولة لعلل وأسباب يسعى المؤرخ إلى استخلاصها.

(٤) أن يصل بذلك إلى أحكام كلية تمكنه من التنبؤ في المستقبل » .

وخلاصة القول: لقد عمل مؤرخو العرب والمسلمين على إخراج علم التاريخ من الطور القصصي الخيالي والخرافي إلى علم يستند على البحث والتنقيب والاستقصاء للحقائق التاريخية. فهم العلماء الذين تميز إنتاجهم في هذا المجال بالشمولية والدقة المتناهية والعمق البالغ. لذا يجب أن ندرس ما أسهمت به قريحتهم دراسة فاحصة لكي نتمكن من عرض ثمار ماقدمه هؤلاء الأجداد الأكارم للعالم أجمع.

بوجه عام يحكم المنهج التاريخي عوامل اجتماعية مصدرها مجموعة من المفاهيم والقيم التي إذا صحت ونضجت استقام المنهج، أما إذا فسدت اختلطت النظريات التاريخية لدى المؤرخ، وبهذه الحالة لا يستطيع المؤرخ أن يقدم تصوراً واضحاً في هذا الميدان. ولكن المؤرخ المسلم اللبيب يستمد أفكاره التاريخية من أصول الإسلام ومصادره، لذا تميز منهج التاريخ الإسلامي عن بقية المناهج الوضعية البالية.

طريقة تدوين التاريخ

عند العرب والمسلمين

كان العرب قبل الإسلام يروون الأحداث التاريخية كقصص، فلم يعرفوا التدوين، لذا حصل بعض التحريف والتبديل والمبالغة في تاريخهم، ولكنهم لم يستمروا على هذا المنوال طويلاً، فبعد شروق الإسلام اختلط العرب بشعوب كثيرة دخلت في الإسلام، فحس العرب أنه لابد من الشروع بتدوين التاريخ، حيث صار كل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر من أهم المصادر التاريخية. وهكذا يتضح للقارىء اللبيب أن التاريخ الإسلامي لم يكن له صلة قوية بالتاريخ القديم.

يقول **عبد المنعم ماجد** في كتابه «تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى»: «من المحقق أن العرب في جاهليتهم وأوائل الإسلام لم يقوموا بتدوين التاريخ، وإنما كانوا يحفظونه في ذاكرتهم، ولم يكن ذلك لأنهم كانوا يجهلون الكتابة، ولكن لتحبيذهم الحفظ عن الكتابة، فهذه الأخيرة لم تكن وقتذاك لتعطي صاحبها تفوقاً في المجتمع أكثر ما تعطيه ملكة الحفظ، فكان تاريخ العرب الأول وهو عبارة عن: وقائع وأيام وغزوات محفوظاً في الذاكرة يرددونه على ألسنتهم، وأعانهم على حفظه بيئتهم الصحراوية الطليقة التي ليس فيها تعقيد. ولكن بعد أن ابتعد العرب عن بيئتهم وتفرقوا في الأرض للفتح بين شعوب لا تتكلم لغتهم، ضعفت ملكة الحفظ عندهم وظهرت حاجتهم إلى التدوين».

لقد نهج مؤرخو العرب والمسلمين في أول الأمر في تدوينهم تاريخهم منهج المحدثين الذي يعتمد على سلسلة من الأسانيد، ولكنهم أدخلوا بعض التحسينات، فبدؤوا يستخدمون الحوادث بالسنين مع الحفاظ على العنعنة كما فعل الطبري. ولم يستمروا على هذا المنهج طويلاً، فقد تمكنوا من حذف

الإسناد ورتبوا الحوادث بالسنين فقط مثل ما فعل ابن الأثير، أما ابن خلدون فقد أرخ لكل دولة على حدة، وهذه الطريقة الجيدة انفرد بها ابن خلدون وتليمذه المقريزي المصري. وأخيراً تبنى مؤرخو العرب والمسلمين الأوائل طريقتين لتدوينهم التاريخ هما: الأول: طريقة الحوليات التي تخضع لكتابة التاريخ سنة بعد سنة، ومشكلتها عدم استيفاء أخبار الحادثة الواحدة إذا كانت أحداثها طويلة لا تكفيها السنة الواحدة. أما الطريقة الثانية: فهي طريقة تهتم بتسلسل الموضوع الواحد، لذا لزم المؤرخ أن يتناول الحادثة التاريخية من بدايتها إلى نهايتها حتى ولو استغرقت عدداً كبيراً من السنين، وهذه الطريقة صار لها صدى عظيماً لدى المؤرخين في العالم.

ويذكر **أنور الرفاعي** في كتابه آنف الذكر: «أن مؤرخي العرب والمسلمين اتبعوا في تدوين كتبهم طريقتين: الأولى: الحوليات، وهي ذكر الحوادث سنة بعد سنة، والثانية: هي التسلسل التاريخي، وفيه يبدأ المؤرخ بالحادثة فيسردها من أولها إلى آخرها. أما اهتمام العرب والمسلمين بتدوين التاريخ، فلأسباب كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) رغبة العرب والمسلمين في معرفة تاريخهم السياسي والعلمي وسيرة زعمائهم.

(٢) رغبة العرب والمسلمين في معرفة كل ما يتصل بحياة سيد البشر رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ من أعمال وأقوال، ليستعينوا بها على تفسير القرآن الكريم، وليستنبطوا منها أحكام الدين الإسلامي.

(٣) الرغبة في معرفة أنساب القبائل العربية.

(٤) تشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة بتسجيل حوادث زمانهم لتطلع عليها الأجيال القادمة.

(٥) إقبال علماء اللغة على تدوين الأدب العربي من شعر وخطابة

وأمثال ومفردات لغوية، فذكروا الحوادث المتصلة بكل هذا».

بعد أن انتشر الإسلام بين الأمم احتوت الأمة العربية والإسلامية على ولايات وأقاليم كثيرة متباعدة، من هنا أخذت الحركة التاريخية تتسع بطريقة مذهلة، لذا أحب مؤرخو العرب والمسلمين أن يدونوا معلومات كاملة عن المآثر العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لتكون حصناً قوياً لأبنائهم وأحفادهم ضد الغزو الفكري الذي يشنه أعداء العرب والمسلمين. والجدير بالذكر أن طريقة تدوين التاريخ عند العرب والمسلمين مرت بثلاث فترات: الأولى: وتتسم بالبساطة وقد اعتمدت على الشفاه. والثانية: اهتمت بالأحاديث النبوية ورصدها لتكون عوناً في تفسير القرآن الكريم، مع الاهتمام بجمع الأخبار المتنوعة والتي لها علاقة في علم التاريخ. أما الثالثة: فقد تركزت على تطوير المنهج العلمي لكتابة التاريخ.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «إن التدوين في العصور الإسلامية الأولى مر في ثلاث مراحل: مرحلة التدوين الأولى: وفيها يتسم التدوين بالطابع الشخصي بالنسبة للهدف من استخدام التدوين، وبطابع العفوية والغضول العلمي والمنفعة الدينية أو الاجتماعية بالنسبة للدوافع العامة.. والمرحلة الثانية: وقد امتدت خلال القرن الثاني كله تقريباً. واهتم الأخباريون خلالها بجمع أخبار الأحداث والمواضيع المتنوعة كلها، ومن جميع الأفواه والرواة... والمرحلة الثالثة: مرحلة تدوين التاريخ على الأساس الزمني المتسلسل وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد، وهي تستند في فلسفتها العميقة إلى فكرتين أساسيتين: ـ وحدة التاريخ الإسلامي وأهمية تجارب الأمة الإسلامية ـ وحدة التاريخ البشري من خلال سلسلة الأنبياء. وقد امتدت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثالث حتى استقرت وتوطدت، فتوطد بها علم التاريخ الإسلامي ومناهجه في التدوين».

وخلاصة القول: لقد ثبت في الآونة الأخيرة أن مؤرخي العرب

والمسلمين لم يأخذوا تاريخهم عن كل من اليونان والفرس، بل نشأ وترعرع علماً مستقلاً تماماً، حيث اعتمد المؤرخون المسلمون في كتابة التاريخ على القرآن الكريم والسنة المطهرة كمصدرين رئيسيين لمظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. ولا ريب أن المؤرخين المسلمين استمروا يتناقلون الأحداث التاريخية جيلاً بعد جيل مدة طويلة من الزمن عن طريق كل من الرواية الشفهية والتدوين.

المعروف أنه كان يوجد أعداد كبيرة من المؤلفات التاريخية وغير التاريخية في مطلع العهد الأموي، قام بتأليفها علماء العرب والمسلمين. وهذا ينفي تماماً الادعاءات المغرضة التي تروي أن العرب والمسلمين لم يستخدموا التدوين في القرن الأول الهجري؛ لأنهم لايعرفون القراءة والكتابة. والمتواتر أن كلاً من المدينة المنورة ودمشق والبصرة والكوفة كانت تحتوي على مركز لتدوين التاريخ في القرن الأول الهجري وبداية الثاني، ثم استقطبت بغداد السلام كبار المؤرخين في العالم العربي والإسلامي، حيث كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية ومأوى جهابذة الفكر، ليس فقط في علم التاريخ ولكن في جميع فروع المعرفة، ولذا عرف بيت الحكمة بموطن الحضارة العربية والإسلامية ومستودع جذورها.

موقف الاستشراق
من التاريخ العربي والإسلامي

من المعروف لدى أغلب الباحثين من المسلمين في علم التاريخ، أن المستشرقين لم يعطوا علماء العرب والمسلمين مكانتهم العلمية الصحيحة في تطوير الحضارة الإنسانية الحديثة، بل خانوا مصداقيتهم العلمية تحت ضغط العصبية الدينية، لذا حاولوا أن يشوهوا دور علماء العرب والمسلمين الحاسم في إنماء مصادر المعرفة عبر العصور، وذلك لكي يبعدوا أبناء الأمة العربية والإسلامية من إدراك حقيقة أنفسهم العلمية المرموقة. إن كلاً من العدل والأمانة يمليان علينا أن نذكر في هذه المناسبة أن هناك القليل جداً من المستشرقين الذين عملوا بجدية لإحياء التراث العلمي العربي والإسلامي خدمة للعلم، ولبعث الثقة في نفس القارئ العربي والمسلم بالظهور أمامه في المظهر العلمي النزيه. ولكنهم في الحقيقة وقعوا أيضاً في أحضان العواطف الشخصية والتيارات السياسية المعادية للعرب والمسلمين.

يقول **محمد رشاد خليل** في كتابه آنف الذكر: «لقد تعرضت الأمة المسلمة لأكبر عملية خداع تاريخية يقصد بها طمس ذاكرتها، حتى يسهل قطع حاضرها عن ماضيها، فلا تعود تذكر إلا هذا الحاضر المتفسخ العاجز الذليل فتيأس، وتغلب على أمرها وتستسلم للواقع. لقد حيل بين هذه الأمة وبين تاريخها الحقيقي بأسلوب علمي ذكي مخطط ومدروس. وفي نفس الوقت وضعت بين بعضها البعض حواجز وفواصل تحول دون التعرف على التجانس الذي تتمتع به هذه الأمة رغم الظروف السيئة التي تعيشها. لقد كانت خطة طمس الذاكرة ذات شقين: الشق الأول: تحريف التاريخ. والشق الثاني: تعميق الفواصل والحدود».

نمت وترعرعت الحضارة الإسلامية في ظل العقيدة الإسلامية السمحة التي تُعتبر بحق أساس ظهور الحضارة الغربية الحديثة، لذا بذل عدد كبير جداً من المستشرقين قصارى جهدهم أن يعيدوا الأفكار والنظريات العلمية والتاريخية، التي تدل على مظاهر الإبداع الذهني المتميز إلى الحضارة اليونانية التي يعتقدون أنها انتهت إليهم، علاوة على تصميمهم المركز على أسر الفكر العربي والإسلامي، بل استعماره كاستعمارهم السياسي الذي وصل قمته في النصف الأخير من القرن الثالث عشر الهجري إلى نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري. والجدير بالذكر هنا أن علم التاريخ عند العرب والمسلمين ليس فقط مجموعة من الأحداث الاجتماعية والأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية، ولكنه تاريخ عقيدة ربانية متكاملة، لذا من المستحيل على هؤلاء المستشرقين الغرباء أن يفهموا فهماً عميقاً وواضحاً مغزى العقيدة الإسلامية الطاهرة التي يفخر ويعتز بها كل مسلم على كوكب هذه الأرض.

يقول **محمد عبد الله مليباري** في كتابه «المستشرقون والدراسات الإسلامية»: «نهج المستشرقون في دراساتهم الإسلامية نهجاً استهدفوا منه ما يأتي:

(١) محو الشخصية الإسلامية من كل أثر فكري، دينياً كان أم علمياً أم أدبياً.

(٢) محاولة إيجاد جذور للنصوص الدينية الإسلامية في النصوص النصرانية أو اليهودية، وجذور للأفكار الفلسفية، والعلمية في الأفكار الهلينية، أو أي فكر غير عربي.

(٣) التشكيك في النصوص وصحتها، واستعمال الخلافات الفكرية كأداة له.

(٤) التبرير للانحرافات الدينية وعثراتها في المسيحية من خلال هذه الدراسات ما وسعهم، والغاية من هذا النهج، هو تعطيل تأثير الفكر الإسلامي، وصده عن نفوس المسيحيين، وعن نفوس غير معتنقة، وليتاح بذلك مناخ صالح للتبشير

المسيحي، وأرض خصبة للنفوذ الاستعماري، وليس هناك دراسة من الدراسات الاستشراقية إلا كانت هذه الخصائص مجتمعة فيها أو واحدة منها على الأقل».

وخلاصة القول: المتواتر في المعمورة أن الإنسان وحده هو موضوع علم التاريخ، وأن التاريخ بوجه عام يعين إعانة رائعة على فهم ومعرفة واقع الأمة. والتاريخ الإسلامي يمتاز عن غيره بأنه يعتمد اعتماداً واضحاً على الدين الإسلامي الذي له سمات وخصائص ومقومات مرموقة، وعليه فإن الغربيين يخافون أن يتحرر العرب والمسلمون من التبعية الخطيرة، ويعرفوا ويستردوا تاريخهم الناصع. لذا شجّعوا المستشرقين على دراسة التراث العربي والإسلامي دراسة علمية توهم البسطاء والسذج أنها نزيهة، وذلك ليشككوا بمكانة الحضارة العربية والإسلامية، حتى يتخلى شباب الأمة العربية والإسلامية عنها ويبدؤوا مسيرتهم من جديد.

ويذكر **عبد الرحمن علي الحجي** في كتابه «نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي» : **نقلاً عن أبي الحسن الندوي** ما نصه: «المستشرقون لا يؤمنون بالإسلام ولا يعترفون به ولا بما ينتج عنه، فنحن وهم مختلفون ليس فكراً أو ثقافة فحسب، بل أيضاً ولاءً ومنطلقاً من الأساس. فنحن نؤمن بالإسلام وبكل الكيانات التي قامت به وعليه بكافة طاقاتنا وإمكاناتنا، وله وحده ولاؤنا. وموقفنا وموقفهم من الأديان الأخرى مختلف، فنحن نؤمن بكافة الأديان السماوية التي أنزلها الله على رسله ونجلها ونحترمها كدين. وإيماننا بها وبأنبيائها شرط في إسلامنا. وهذه الحقيقة ترد كثيراً من الاعتراضات حول موقفنا من المستشرقين ومن سار في دربهم ونحا نحوهم وامتص أفكارهم أو نظر نظراتهم من أبنائنا، من غير أن يحس ذلك لكثرة ما ارتوى من مشربهم. وهو متوفر في بلداننا في كثير من مصادر ثقافتنا ومواطن تعليمنا» .

مكانة الوثائق التاريخية
عند العرب و المسلمين

المعروف أن الوثائق التاريخية تشتمل على معلومات رسمية أو شبه رسمية مثل: المنشورات والسجلات والمخالفات والأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقات والمراسلات الاقتصادية والسياسية والمستندات وعقود البيع والشراء وما أشبه ذلك، لذا لابد من وجودها أمام المؤرخ الفطن لكي يجيب على الأسئلة والاستفسارات التي تدور في ذهن القارىء اللبيب.

يعرف **حسين محمد سليمان** الوثائق في كتابه آنف الذكر فيقول: «اللفظة مشتقة باللغة الأجنبية من كلمة (ديبلوم) وهي تعني أية وثيقة صادرة عن السلطة الشرعية، وهي تعني بالنسبة للتاريخ كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية، ومع بُعد زمن الوثيقة عن عصور البحث التاريخي صار علم الوثائق يعني تحقيق الوثائق ونقدها وتحديد زمانها، والوسائل التي صنعت منها الوثيقة في زمنها مثل نوع الحبر (المداد) المستعمل في الوثيقة، ونوع الورق المستخدم وخصائصه. وقد اتصل بدراسة الوثائق دراسة الأختام أو الطمغات وهو ما اصطلح عليه أخيراً واعتبروه علماً مستقلاً، وهي تمر به الوثائق ولكل عصر وزمن ودولة شكل خاص ومادة خاصة تستخدم بها الطمغات».

بدون الوثائق التاريخية لا يمكن للمؤرخ أن يعرف كلاً من خيرات وأفضال ومآسي وظلمات الماضي. وعليه يجب أن يكون في متناول المؤرخ المتمكن وثائق تاريخية واضحة وجديرة بالثقة، لكي يستخدمها في بحوثه التاريخية، لذلك يمكن القول: إن الوثائق التاريخية هي وقود علم التاريخ التي لا يستغني عنها المؤرخ.

يقول **قاسم يزبك** في كتابه آنف الذكر: «الباحث الذي يكتب التاريخ دون أن يحصل على مجموعة من الوثائق الأساسية الجديدة، أو التي لم يكن قد سبق استخدامها استخداماً علمياً مكتملاً، تنقص قيمة بحثه العلمية أو تتضاءل أو تنعدم مهما بذل من مجهود، وقد لاقى الباحثون والمؤرخون القدامى صعوبات جمة في سبيل الوصول إلى الوثائق التاريخية. وإذا كانت الحوادث التي قصدوا الكتابة عنها قريبة نسبياً من العهد الذي عاشوا فيه، فإنهم كانوا يرجعون إلى روايات وقصص بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث ويقارنون بينها وينقدونها، ويستخلصون منها ما يمكن الوصول إليه من الحقائق التاريخية».

وللأسف الشديد لقد خسرت الأمة العربية والإسلامية الكثير جداً من وثائقها التاريخية بسبب ويلات الحروب التي نتج عنها حرق وتخريب المكتبات العظيمة في البلدان العربية والإسلامية. كما أن أعداء الأمة العربية والإسلامية منذ الأزل كانوا يهتمون بالوثائق التاريخية اهتماماً بالغاً؛ لأنها تصور الأطر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية المتبعة في بناء الحضارة العربية والإسلامية التي خلبت عقول علماء الغرب، لذا استطاعوا بخبث أن ينهبوا الكثير من الوثائق الهامة التي وضعوها في مكتباتهم المنتشرة في جميع أرجاء أوربا، لتكون في متناول المستشرقين.

يقول **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه آنف الذكر: «إن المجتمع الإسلامي كان مجتمعاً يقوم على المساواة أمام الشريعة الإسلامية التي لم تفرق بين مختلف طبقاته في الحقوق، فلم تكن فيه هيئات كنسية ولا نظام الطوائف والنقابات والإقطاع الذي كان سائداً في أوربا في العصور الوسطى، وكلها هيئات كانت تحتفظ بالوثائق التي تثبت ما تكتسبه من حقوق. كما أدى قيام الدول المستقلة عن الخلافة العباسية وسقوطها وقيام دول أخرى على أنقاضها

إلى ضياع الكثير من الوثائق الرسمية للحكومات البائدة، أو تلفها بسبب الخصومات السياسية أو المذهبية القائمة بين الدولة الجديدة والدولة السابقة عليها، وتعرضت الدواوين التي تحفظ فيها الوثائق الرسمية في عصر الدولة الأموية للحرق. مثل ديوان الكوفة الذي احترق بما كان يضمه من وثائق في سنة (٨٢ هجرية)، وديوان الفسطاط الذي تعرض للحريق في عصر الدولة الأموية، ومع ذلك فقد وصلت إلينا بعض المستندات والوثائق العربية».

وخلاصة القول: لايمكن بأي حال من الأحوال دراسة علم التاريخ دراسة موضوعية متكاملة إلا من خلال الوثائق التاريخية؛ لأن علم التاريخ لا يبتكر ولا يوجد من العدم. وصدق كل من لانجلوس وسينوبوس عندما قالا في كتابهما الذي بعنوان: «أهمية الوثائق التاريخية»: «حيث لا توجد الوثائق ينعدم التاريخ».

ومن المحزن حقاً أن الغربيين استطاعوا أن يسرقوا وثائق عربية وإسلامية كثيرة عبر الأندلس وصقلية والحروب الصليبية وكابوس الاستعمار، وعن طريق هذه المصادر تمكنوا ـ عليهم اللعنة ـ من تزييف التاريخ الإسلامي. وقد قامت بهذه العملية القذرة شرذمة من المستشرقين المتخصصين في اللغة العربية والتاريخ، محاولين طمس المكانة العلمية والأدبية التي وصل إليها كبار علماء العرب والمسلمين في الحضارة العربية والإسلامية المرموقة.

علاقة علم الجغرافية بعلم التاريخ الإسلامي:

اهتم العرب والمسلمون بعلم الجغرافية اهتماماً بالغاً لصلته الوثيقة بعلم التاريخ، لذا أخذوا بالرأي القائل: «أن المعرفة الجغرافية ضرورية لفهم الوقائع التاريخية؛ لأن الأرض هي المحيط الجغرافي الذي يتم عليه جميع الأحداث التاريخية، وعليه رأوا أنه يجب على المؤرخ أن يتعرف على حالة المكان

وظروفه. وكما هو معروف أن الظواهر الجغرافية بأنواعها المتعددة لها تأثير مباشر على الإنسان الذي يُعتبر العمود الفقري لعلم التاريخ، وهكذا بذل العرب والمسلمون جهوداً عظيمة لمعرفة الطرق لكي يقوموا برحلاتهم المبتكرة لجمع المعارف العلمية والتاريخية من جميع أنحاء العالم، فوصلوا الصين وجزيرة زنجبار وسواحل المحيط الأطلسي الغربية وسواحل القارة الأفريقية وغيرها، بهذا أصبح مؤرخو العرب والمسلمين قادة الفكر في هذا المجال الحيوي.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «الجغرافيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ، والارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا، فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ وهي ذات أثر كبير في توجيه مصائر النوع الإنساني، فهي التي أطعمت الإنسان وأنشأته وعينت واجباته، وأوجدت المصاعب والعقبات الطبيعية التي تشحذ قريحته للتغلب عليها، وللتأثير بدوره في البيئة التي يعيش فيها والعمل على استغلالها، وللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير مع غيرها من المؤثرات في الإنسان وبالتالي في التاريخ، وذلك تبعاً لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها».

يجب أن يكون المؤرخ حذراً جداً عند تطبيق ودراسة تأثير العوامل الجغرافية على الإنسان؛ لأن بعضها يمكن أن يكون مبالغاً فيه فيوقع المؤرخ في متاهات خطيرة لا أول لها ولا آخر، لذا لابد أن يتحرى المؤرخ الأمين الدقة في نقل المعلومات التي يعرضها، فمثلاً بعض المؤرخين يفترض أن تأثير البيئة على الحيوان ينسحب تماماً على الإنسان، وهذا طبعاً خطأ جسيم؛ لأن الإنسان بعقله وحكمته ومنطقه استطاع أن يغير من الصعوبات التي في البيئة، فلم تبق البحار والأنهار والجبال والغابات والرمال عوائق للإنسان كما كانت في السابق بل سخّرها لخدمته باستخدام التقنية الحديثة.

ومن الأمور التي لا يقبلها العقل السوي، ما قاله **أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي** في كتابه «طبقات الأمم» (تحقيق لويس شيخو اليسوعي) حول تأثير البيئة على الإنسان: «وأما التُرك فأمة كثيرة العدد أيضاً، فخمة المملكة، ومساكنها ما بين مشارق خراسان من مملكة الإسلام وبين مغرب الصين وشمال الهند إلى أقصى المعمور الشمالي، وفضيلتهم التي برعوا فيها وأحرزوا خصلتها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، فهم أحذق الناس بالفروسية والثقافة وأبصرهم بالطعن والضرب والرماية، وأما سائر هذه الطبقة التي لم تعن بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس؛ لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال عن مساحة رؤوسهم برد هواؤهم وكثف جوهم، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة، فعظمت أبدانهم وأبيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم، فعدموا بهذا دقة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العي والغباوة».

لا شك أن الطبيعة الجغرافية لها أثر كبير على حياة الإنسان على كوكب الأرض؛ لأنه يتفاعل معها طبيعياً، وفي بعض الأحيان البيئة تحدد منهجه في التاريخ، ولكن المفروض أن يتجنب المؤرخ الغلو في هذا الاتجاه فلا يقع فيما وقع فيه أبو القاسم صاعد الأندلسي. كما تواتر لدى المؤرخين عبر التاريخ أنهم يرون أن علم الجغرافية من العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ، لذا اعتبر مؤرخو العرب والمسلمين التاريخ والجغرافية فرعين علميين متلازمين لارتباطهما الوثيق بحياتهم؛ لأنهم استفادوا من ذلك في معرفة كل من البلاد التي فتحوها والطرق التجارية المؤدية للدول المجاورة لهم، كما اتسعت معرفتهم بأقسام الأرض ورسم الخرائط.

يقول **محمد عواد حسين** في مقالة له تحت عنوان: «صناعة التاريخ»، نشرت له في مجلة عالم الفكر: «ليس ثمة شك في أن الجغرافية لها أثر كبير على توجيه المسارات التاريخية ومن ثم على مصائر أهل هذا الإقليم.. إن الناس في

أية بيئة من البيئات يتفاعلون معها تفاعلاً تلقائياً تمليه الطبيعة الجغرافية لهذه البيئة ومن ثم يتشكل تاريخهم تشكيلاً يتفق والبيئة، وبالتالي يتحدد مسار تاريخهم. ومن أبرز الأمثلة على أثر الطبيعة الجغرافية في تاريخ قوم من الأقوام مصر؛ فالنيل هو مصدر حياتها، وهو الذي شكل تاريخها ووجهه الوجهة التي سار فيها، لقد تعلم منه سكانها هندسة الري وأدركوا بفضله معنى الوحدة والتعاون، وجعلهم من أغنى شعوب العالم القديم، وأسبقهم إلى الأخذ بأسباب التقدم الحضاري».

وخلاصة القول: كان معرفة العرب قبل الإسلام عن الظواهر الجغرافية محدودة للغاية، ولكن بعد أن انتشر الإسلام اضطر العرب والمسلمون أن يدرسوا عن كثب الطرق والشعاب والمحصولات الزراعية والتضاريس والمناخ لجميع البلدان التي دخلت في الدين الإسلامي، وذلك ليطلعوا عن قرب على حالة السكان الاجتماعية والمالية والإدارية. والجدير بالذكر أن مؤرخي العرب والمسلمين عملوا أعمالاً رائعة لدراسة العوامل الجغرافية؛ لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنها لاتزال تلعب دوراً هاماً في تغيير مجرى التاريخ.

علاقة علم التاريخ بالحضارة:

كان علم التاريخ عند العرب قبل الإسلام قائماً على الرواية الشفهية التي تنتقل من جيل إلى جيل، كما يشمل على معلومات عن الأنساب والقبائل وشجاعة الفرسان وكرم الحكام وأخبار الأجداد السياسية والاقتصادية، وعليه استمد المسلمون في فجر الإسلام كثيراً من معارفهم التاريخية من هذا المصدر (الرواية الشفهية)، ولكنهم لم يستمروا طويلاً على هذا المنهج، بل اعتبروا علم التاريخ العلم الذي يحد بوضوح تام أوقات الحوادث وأساليبها وأسباب حدوثها، وربطوه بجميع العلوم، فصار يعرف علم التاريخ بعلم العلوم، وبهذه الحالة تكون الحضارة وعلم التاريخ متلازمين ومترابطين، لذا تميز مؤرخو العرب والمسلمين في هذا الفن وتفوقوا على غيرهم من الأمم.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «تجد الفكرة الحضارية سابقة على الحركة التاريخية، والحركة التاريخية مؤدية إلى المزيد من النشاط الحضاري؛ أي إن التاريخ والحضارة يسيران جنباً إلى جنب، فكرة حضارية تؤدي إلى خطوة حضارية أخرى وهكذا، فلا فاصل ـ في الحقيقة ـ بين الحضارة والتاريخ. ومن هنا نفهم كيف أن فلاسفة التاريخ في عصرنا الحديث يكتبون التاريخ ولكنهم يدرسون الحضارات، ودراسة توينبي الشهيرة في التاريخ إنما هي دراسة مقارنة للحضارات تتوقف الحركة التاريخية أيضاً، أو تجمد الجماعة في مكانها ثم تبدأ في التدهور، وهذه هي الحضارات الموقوفة».

إذا كان مرتكز علم الماضي بأبعاده المختلفة، فإن الحضارة أيضاً أساسها المتين الماضي المتصل بالحاضر المبشر بالمستقبل، والجدير ذكره أن كلاً منهما يحتوي على العملية العقلية المتقدمة من إسهام الفكر الإنساني، ولهما صلة وثيقة جداً في جميع فروع المعرفة المختلفة من حيث المقدار والنوع. والمعروف لدى الباحثين في هذين المجالين أنهما المصدران الهامان لمن يريد أن يحصل على معلومات صحيحة عن كبار العلماء الذين قامت الحضارات الإنسانية على أكتافهم.

وتنقل لنا **سيدة إسماعيل كاشف** عن رأي روبنسون (J.H.Robinson) حول علاقة علم التاريخ بالحضارة الذي أورده في كتابه «العصور الوسطى والعصر الحديث»، ويظهر ذلك في كتابها «مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه»: «إذا أردنا أن ندرس التاريخ الإسلامي دراسة صحيحة تساعدنا على فهم الأحداث السياسية، وتمكننا من تفهم العوامل التي أدت إلى تقدم المسلمين أو إلى تأخرهم في الفترات المختلفة من التاريخ الإسلامي، يجب علينا أن ندرس المجتمع الإسلامي من كل نواحيه الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية. ولذلك فإننا لا نؤيد تقسيم الدراسات التاريخية إلى (تاريخ) و(حضارة)؛ لأن دراسة التاريخ السياسي وحده ليست تاريخاً كاملاً، كما أن دراسة الحضارة لايمكن فصلها تماماً عن التاريخ السياسي، اللهم إلا إذا قصد

بها أن تكون دراسة جانب من التاريخ،فعلم التاريخ لا يمكن أن يؤدي الغرض منه وأن يكون تاريخاً بالمعنى الصحيح إلا إذا درس الماضي بما فيه من الأحداث، والأحوال التي كان يعيش فيها الإنسان من النواحي المختلفة، والنظم التي اهتدى إليها وتطورت على يده».

في رأيي: إن المؤرخ الناجح هو الذي يسير على نهج مؤرخي العرب والمسلمين الذين اهتموا اهتماماً بالغاً بالدقة والصدق والأمانة، وهذا وليد دراستهم العميقة لإسناد الأحاديث النبوية الشريفة وتفسير القرآن الكريم منذ البداية، لذا نشأ وترعرع علم التاريخ عند العرب والمسلمين على قواعد وأسس علمية متينة، ولاشك أن المؤرخ العربي والمسلم يمثل ضمير الإنسان الواعي البعيد كل البعد عن النفاق والمجاملات الخطيرة. من هنا نقول وبصراحة: إن علم التاريخ إنتاج العقل والتجربة العلمية والسياسية، والحضارة هي المحرك الفريد لعلم التاريخ نفسه. وبهما نستطيع أن نعرف بوضوح سبب نهوض وجحود وتدهور الأمم عبر التاريخ، وبهما أيضاً يمكن بسهولة التخطيط للمستقبل.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «المؤرخ يدرس الماضي؛ لأن الماضي هو الذي أنشأ الحاضر؛ أي أننا ندرس الماضي لنفهم الحاضر، وندرس الحاضر لنستطيع توجيه المستقبل. وقد قال بعض فلاسفة التاريخ: إن التاريخ هو سياسة الماضي، وعلى ضوء هذا القول: يكون الحاضر جزءاً من اختصاص المؤرخ؛ لأنه نتيجة وثمرة للسياسات الماضية، وعلى أساس من فهم الحاضر وسياساته واتجاهاته يمكن تصور المستقبل وحسابه وتوقعاته، وهذا ما يسمى بالتخطيط للمستقبل. ونحن عندما نخطط لبلدنا خلال الخمسين سنة القادمة مثلاً إنما نكتب مقدمة تاريخ هذه الخمسين سنة القادمة، أو ـ على الأقل ـ نرسم تاريخنا القادم خلال هذه الفترة كما نريده أن يكون.. ولو أن المسلمين التزموا بالنظام السياسي المستقى من شريعتهم وسُنة رسولهم لما انتكست حضارتهم ولا تدهور مجتمعهم قط».

وخلاصة القول: إن الاتجاه الحديث لدراسة علم التاريخ مشجع ومطمئن؛ لأنه يقوم على الجمع بين علم التاريخ والحضارة. ولقد تواتر عن المؤرخين في المعمورة أن أي تحرك تاريخي لا يصحبه تحول حضاري لا قيمة له في الفعالية التاريخية، لذا فإن علماء العلوم البحتة والتجريبية يجب عليهم عند البحث في علم التاريخ أن يعرفوا الأسباب الرئيسة للتقدم العلمي، حيث إننا ندرس علم التاريخ لنفهم الماضي وعلاقته بالحاضر لكي نخطط للمستقبل المشرق، وعليه لابد من تدوين المنجزات العلمية الضخمة التي خلبت عقل الإنسان المعاصر. والحقيقة التي لابد من ذكرها بهذه المناسبة أن العلماء في الغرب والشرق لو درسوا علم التاريخ بصدق وتجرد، لاتعظوا من ويلات الحروب المدمرة التي قامت على اختراعاتهم لأسلحة الدمار الشامل.

لقد أصبح علم التاريخ من المواد الهامة لمن يريد أن يعمل خطة مستقبلية لبلاده، لذلك أخذ أصحاب الرأي يؤرخون للمستقبل بكل ثقة، حيث إن العناصر الضرورية لهذا العمل الحيوي موجودة في متناولهم، ولاشك أن هذه نتيجة لكل من المعلومات العلمية والسياسية، ومعرفة طبائع البشر بكل تفاصيله المخزنة لديهم في أجهزة الحاسوب الذي يُعتبر في الآونة الأخيرة من ضرورية العمل المتقن.

علاقة الأدب بعلم التاريخ الإسلامي:

كان مؤرخو العرب قبل الإسلام يعتمدون اعتماداً كثيراً على الشعر في دراساتهم التاريخية، بل يكاد يكون الشعر المرجع الوحيد الموثوق به حينئذ، ولاشك أن الشعر الجاهلي يفيض بالمعلومات التاريخية والجغرافية، لذا فالأعمال الأدبية بوجه عام تضفي على الدراسة التاريخية مزيداً من السلاسة والدقة، ولكن يجب أن يكون المؤرخ حذراً جداً حتى لا تختلط الحقائق التاريخية بالحقائق الأدبية. والمتواتر أن المؤرخين الأوائل استندوا على

المعلومات التي وصلت إليهم من دواوين الشعر في بحوثهم حول الحركة التاريخية؛ لأن الشعر أقرب وأصدق مصدر لتسجيل العادات والتقاليد للشعوب المختلفة. ولا ريب فإن الإنتاج الأدبي الجيد يفتح أمام المؤرخ آفاقاً واسعة ويمده بالخبرة العميقة.

يقول **محمد عواد حسين** في مقالة له تحت عنوان: «صناعة التاريخ» نشرت له في مجلة عالم الفكر: «الأدب من العلوم المساعدة التي يلزم المؤرخ أن يلم بها، فأدب القوم هو مرآة حياتهم وحضارتهم، وهو التعبير الصادق عن أفكارهم وعواطفهم الإنسانية. وهو الذي يكشف دخائل الأفراد ويصور لنا أحلامهم وأمانيهم. والأدب في مجالاته المختلفة يرسم لنا أوضاع الشعوب ونظمهم وشتى جوانب حياتهم. ونحن إذا تناولنا الأدب المصري القديم ـ برغم قلة ما وصلنا منه ـ أو الأدب الإغريقي أو الأدب الروماني، نجده يفيض بالمعلومات التي ترسم لنا تاريخ هذه الشعوب رسماً دقيقاً واضحاً».

المؤرخ الناجح هو الشخص الذي يستطيع أن يصور العواطف الإنسانية تصويراً أدبياً واقعاً، لذا يصح القول: إنه لا يمكن للباحث في ميدان علم التاريخ أن يصل إلى نتائج مرضية دون أن يتذوق ثمرات أدب الشعب الذي يريد أن يكتب عنه؛ لأن الأدب بنوعيه النثر والشعر كانا يساعدان على تحليل الحياة القائمة آنذاك تحليلاً علمياً مرموقاً. وهكذا نظم العرب والمسلمون الأناشيد والأغاني لتكون سجلاً تاريخياً للحياة الاجتماعية والسياسية في دولتهم المترامية الأطراف، وقد أضفى ذلك على دراستهم التاريخية مزيداً من الدقة ومزيداً من نبض الحياة.

يقول **حسن عثمان** في كتابه «منهج البحث التاريخي»: «ودراسة الأدب بصفة عامة توسع عقل الإنسان وتصقل نفسه، وتجعله أقدر على الفهم والاستيعاب ، ولابد للراغب في كتابة التاريخ أن يتذوق الشعر لكي يفهم ملكة الخلق والابتكار، ويلزمه أن يقرأ شيئاً من القصص الأدبي لكي يتعلم فن عرض

الموضوع، وإبراز الحوادث الهامة وبحث الشخصيات الأساسية والثانوية، ووضع التفاصيل والجزئيات في المكان الملائم، وإحكام الإطار العام للموضوع الذي يدرسه، وإثارة انتباه القارىء، وجعله قادراً على استيعاب ما يقدم إليه وتذوقه. ويحسن بدارس التاريخ كذلك أن يلم بشيء من مذاهب النقد الأدبي، إذ إن دراسة حياة الأدباء، وتحليل آثارهم وتذوقها، ونقدها من ناحية اللفظ والموضوع والمعنى تقدم للمؤرخ ذخيرة قيمة تعينه في دراسته التاريخية».

عرف مؤرخو العرب والمسلمون عن كثب الرابطة القوية التي تربط الأدب بعلم التاريخ، لذا ركزوا في بحوثهم التاريخية على هذا الجانب الحيوي؛ لأن المصادر الأدبية كانت تمدهم بفيض من المعارف التاريخية التي كانوا في أمس الحاجة إليها. والجدير بالذكر أن الشعر العربي كان ولايزال من المناهل الهامة للدارسين لعلم التاريخ؛ لأنه يحتوي على صورة واضحة وصادقة لحياة العرب الاجتماعية والدينية علاوة على وصف طباعهم وأخلاقهم وأنسابهم ومآثرهم.

يقول **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر: «عرف العرب الكثير عن تاريخهم وحياتهم الاجتماعية من خلال الشعر الجاهلي، والأدب الجاهلي القديم، كما أن أبحاث فقهاء اللغة العربية في القرن الثاني والثالث للهجرة كانت سبباً في تحسين أسلوب التدوين التاريخي، فضلاً عن أن كثيراً من الأحداث التاريخية نقلت من الخطب التي كان يلقيها الحكام العرب والمسلمون، وغيرهم. ويمكن الرجوع إلى كتب الأدب العربي القديم لمعرفة مدى تأثر التاريخ بها، بل إن كتاباً مثل «الأغاني» للأصفهاني، و «العقد الفريد» لابن عبد ربه وهي من كتب الأدب تعتبر مصادر تاريخية هامة في التدوين التاريخي.. ومعرفة هذه الأمور تفيد قارىء وباحث التاريخ».

وخلاصة القول: لاشك أن الأدب بنوعيه النثر والشعر له صلة قوية جداً بسائر العلوم، ولكنه يمتاز بعلاقته المتينة بعلم التاريخ. فالأدب مرآة العصور؛ لأنه يعطي صورة حقيقية لآراء وعواطف الناس حينئذ، كما أنه يُعبر عن

أمانيهم وأحلامهم بدقة وصدق، فالأدب يُعتبر بحق العمود الفقري للتحصيل الثقافي، لذا نرى أن الباحثين في حقل علم التاريخ يبذلون جهوداً عظيمة في دراساتهم تأثير الأدب على مجريات الأحداث التاريخية، لذا يمكن القول: إن الأدب هو رمز الأمة وصدى حضارتها وتاريخها.

علاقة علم الاقتصاد بعلم التاريخ الإسلامي:

يتطلب من الباحث في ميدان علم التاريخ أن يأخذ بمفهوم علم الاقتصاد ويتعرف على أساليبه وتطبيقاته؛ لكي يتمكن من إغناء دراسته التاريخية، وهذا بالضبط الأسلوب الذي اتبعه مؤرخو العرب والمسلمين. الحقيقة أن اطلاع المؤرخ على البحوث الاقتصادية يفيد الدراسة عمقاً ويعطيها دفعة إلى التكامل المطلوب، لذا رأى مؤرخو العرب والمسلمين الأوائل أنه من الضروري التعاون بين المؤرخين والاقتصاديين؛ لأن المعرفة الإنسانية بوجه عام متداخلة ومتشابهة، وليس بالاستطاعة القيام بدراسة تاريخية متكاملة بمعزل كامل من علم الاقتصاد.

لقد وضَّح **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر العلاقةَ القوية بين علمي التاريخ والاقتصاد وذلك بقوله: «الاقتصاد من العلوم الأساسية التي يساعد الإلمام بها على دراسة التاريخ، إذ إن العوامل الاقتصادية ذات أثر فعّال في سير التاريخ، فالثروة الطبيعية في بلد ما تحدد نوع الإنتاج الزراعي والصناعي، ونوع التبادل التجاري ومدى نشاطه. وطريقة توزيع الثروة الطبيعية أو الأموال ومدى تركزها في طبقة أو طبقات معينة، أو مستوى توزيعها بين فئات أكثر عدداً، يؤثر في السياسة الداخلية لدولة ما، ويؤثر في نظام الحكم بها، وفي مستوى الرخاء أو الفقر، وفي حياة الشعب، وفي علاقة طوائفه بعضها ببعض، ويؤثر في مستوى العمران ونهوض الحضارة أو تدهورها، وتؤثر الظروف الاقتصادية في علاقة الدولة بالعالم الخارجي، سواء أكان ذلك في الناحية الاقتصادية البحتة، أم في العلاقات السياسية، وكذلك تؤثر في

مستوى قوتها العسكرية ومركزها في المجتمع الدولي.. نجد أن الانقلاب الصناعي الذي حدث في أوربا في القرن الثامن عشر الميلادي نتيجة للمخترعات الحديثة، قد أحدث ثورة في النظم الاقتصادية، مما أملى على دول أوربا الغربية سياسة التوسع والاستعمار للحصول على المواد الخام، ولإيجاد أسواق لتصريف المنتجات الصناعية».

فسّر مؤرخو العرب والمسلمين التنقل الذي حدث لبعض أفراد الأمة العربية والإسلامية في فترة ازدهار حضارتهم لسببين رئيسيين: الأول: نشر الدعوة الإسلامية، والثاني: التجارة التي كانت تمدهم بالعملات الصعبة لإنعاش اقتصادهم الداخلي. والمعروف عبر التاريخ أن الاهتمام بمنطقة ما يكون لمكانتيها الاقتصادية والاستراتيجية، فمثلاً اهتمام الغرب بمنطقة الخليج العربي عائد لكثرة احتياطي النفط فيها ولموقعها الاستراتيجي العظيم، لذا فهم مستعدون أن يبذلوا كل غال للدفاع عن هذا الجزء الحيوي من العالم. الآن يتضح للقارىء أن علم الاقتصاد ضروري للباحث في علم التاريخ، حيث لا يمكن تفسير ظاهرة اجتماعية أو حقيقية تاريخية بدون العودة إلى الظروف الاقتصادية. والجدير بالذكر أن جميع الحروب التي تمت بين شعوب العالم كان سببها الأول والأخير الهيمنة على المصادر الاقتصادية للدول الضعيفة.

يؤكد أيضاً **محمد عواد حسين** على مكانة علم الاقتصاد وعلاقته القوية في مظاهر الحركة التاريخية، فيقول في مقالة له تقدم ذكرها: «وينبغي للمؤرخ أن يلم بعلم الاقتصاد إلماماً يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية على مسار التاريخ، فنحن نعرف أن السياسة الداخلية لدولة من الدول تعتمد اعتماداً كبيراً على مدى ثرائها الطبيعي ونشاطها التجاري، وطريقة توزيع الثروة الطبيعية في بلد ما تحدد عادة نوع الحكم فيها ومستوى الرخاء العام بها وعلاقة طوائفها ببعضها، لا في النواحي الاقتصادية فحسب وإنما في النواحي السياسية أيضاً. فكثير من الحروب والغزوات، والحروب

الاستعمارية، كان الدافع إليها دافعاً اقتصادياً بحتاً، ومكانة الدول في عالمنا الحديث تتوقف قبل كل شيء أيضاً على أوضاعها الاقتصادية».

وخلاصة القول: يتبين للقارىء أن لعلم التاريخ صلة قوية جداً بعلم الاقتصاد، وعليه عني العرب والمسلمون بهذا الجانب الحيوي لحاجتهم الماسة للتفسيرات والشروح الاقتصادية التي ساعدتهم على تسيير الأمور المالية للدولة، ولمعرفتهم التامة بأن العوامل الاقتصادية هي التي تحدد مصائر الشعوب. والثابت تاريخياً أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من وضع ديوان الخراج الإسلامي ـ الذي كان يحتوي على واردات بيت المال من المصادر المختلفة مثل الغنائم والزكاة والتبرعات والجزية وغيرها ـ لكي ينظم اقتصاد الدولة الإسلامية حينئذ. ولاشك أن العرب نالوا شهرة عظيمة في تجارتهم الخارجية منذ العصور القديمة جداً، فكانوا يتنقلون بين المشرق والمغرب في الصيف والشتاء لإتمام صفقاتهم التجارية التي كانوا يعتمدون على مردودها المالي في حياتهم اليومية، لذا نستطيع أن نقول وبصراحة: إن العرب والمسلمين لهم السبق على غيرهم في استخدام الحقائق والأفكار الاقتصادية لشرح بعض الظواهر الاجتماعية الصعبة.

لقد بذل علماء العرب والمسلمين مجهودات كبيرة للوصول إلى درجة عالية من الرقي الاقتصادي؛ لأنهم يعرفون تمام المعرفة أن هذا العلم هو الذي يسيطر على الحكومات والشعوب في العالم، وعليه ازدهرت الحضارة العربية والإسلامية، وصار للأمة الإسلامية مكان مرموق بين الأمم. ومما تقدم يظهر للقارىء اللبيب أن الأمة الإسلامية كان لها دراية متينة في مجال علم الاقتصاد، وقد استمرت على ذلك عبر العصور الإسلامية، وليس كما يدعيه الغرب أنهم هم فقط أهل علم الاقتصاد، وأن جميع الأفكار والنظريات الاقتصادية من ابتكاراتهم.

علاقة الآثار المعمارية بعلم التاريخ الإسلامي:

من معالم العمارة الإسلامية العقود والقباب والقبوات والمآذن التي تمتاز به، كما تبرز فيها الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والدينية، لذا تُعتبر العمارة الإسلامية المرآة الحقيقية التي تعكس قدرة وذوق وفلسفة المهندسين المعماريين المسلمين. وهكذا تصور المنشآت المعمارية بوضوح وجلاء أماني وآمال الشعوب. والحقيقة أن الآثار المعمارية وعلم التاريخ متلازمان؛ لأن كلاً منهما يهتم بالماضي الذي يُساعد الحاضر في التخطيط الباسم. إذن نستطيع أن ننوه هنا أن الإلمام بتاريخ الآثار المعمارية مهم جداً للباحث في مجال علم التاريخ.

العمارة الإسلامية تقدم صوراً صحيحة للمستوى الحضاري التي وصلت إليه الأمة الإسلامية، وهذا التصور يمكن الباحث في ميدان علم التاريخ بفيض من المعارف عن حياة الأمة العربية والإسلامية، الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية. وفي بعض الأحيان تكون المنشآت المعمارية هي المصدر الوحيد الذي يستند إليه المؤرخ في كتابة تاريخ أمة لم تخلف شيئاً مكتوباً.

يقول **توفيق حمد عبد الجواد** في كتابه «تاريخ العمارة والفنون الإسلامية» ـ الجزء الثالث ـ: «كلنا نعلم بل العالم كله يعترف بأن مهد الحضارة كان مقره الشرق العربي، وأن الشرق علم شعوب العالم أجمع في الماضي، كيف تكون الحضارة؟ وكيف تكون العمارة؟ وهذه هي حقيقة التاريخ الصحيح الذي لا يكذب، والعمارة هي توأم التاريخ، فهي أيضاً لا تكذب. إن العالم العربي يزخر حقاً بثروات طائلة من العلوم والثقافة والأدب والتراث الإنشائي والطابع المعماري، كما يزخر أيضاً بكنوز وثروات مادية ظاهرة وباطنة، وأن مفاتن الشرق لا تحصى ولا تُعد.. ومن الحقائق الثابتة أن العمارة كانت دائماً هي الصادقة والتعبير الدقيق لحضارة الإنسان وتطوره، وسارت حضارة الإنسان مع العمارة في تطور هادىء ورزين لا يفارق طابعها المميز، وكانت العمارة دائماً

تتميز بصفتين متلازمتين لا يمكن فصلهما، فإلى جانب الوجود المادي المستمد من مواد البناء وطرق الإنشاء. هناك المحتوى الحسي للمبنى وهو ما يتمتع به المبنى من صفات فنية، وهي الغرض والوظيفة بأسلوب خاص وتعبير معين.. والعمارة معرضة للنقد والتحليل، شأنها في ذلك شأن أي عمل فني أو عمل أدبي، ولكن يظهر ذلك النقد بوضوح في العمارة، وهي المرآة التي تنعكس عليها ثقافة الشعب ونهضته وتطوره ورقيه. هي الحياة التي عاشت في عالم الأمس، والتي تعيش اليوم، والتي ستبقى حية في المستقبل».

لقد تأثرت العمارة الإسلامية في طفولتها بالأفكار والنظريات المعمارية الفارسية والسريانية والبيزنطية، حيث أخذت منها ما يتفق تماماً والعقيدة الإسلامية، ولكنها سرعان ما ترعرعت ونمت حتى قوي عودها، ووصلت إلى أن تكون فناً معمارياً إسلامياً بحتاً. والجدير بالذكر أن المنشآت المعمارية التي بقيت شامخة يأتي إليها ويذهب جيل إثر جيل، أصبحت عنصراً هاماً في حياة الناس وفكرهم؛ لأنهم يستلهمون تاريخهم منها. والمتواتر أن المؤرخ الناجح هو الذي يستطيع أن يستنبط الأفكار التاريخية من خلال المنشآت المعمارية؛ لأن الآثار المعمارية تُعتبر بحق مرآة ناصعة للحضارة الإسلامية.

ويؤكد **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه «التاريخ والمؤرخون العرب» أن الآثار المعمارية من أهم المصادر التي يستند إليها المؤرخ فيقول: «تُعتبر الآثار الباقية كالمنشآت المعمارية من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في كتابته التاريخية، ذلك لأن الوثائق المكتوبة لا تكفي وحدها لهذا الغرض، إما لندرتها، أو لتناقض ما جاء فيها، أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالقصص والأساطير.. فالنفوذ الأندلسي على المغرب الأقصى في عصر دولة بني أمية في الأندلس يتجلى بصورة واضحة في مسجد القرويين والأندلس بمدينة فاس، وسيطرة المرابطين والموحدين على الأندلس يُعبر عنها الأسلوب الفني المشترك السائد في كل من المغرب والأندلس في هذين العصرين، وغلبة الطابع

الغرناطي على آثار المغرب كله منذ أوائل القرن الرابع عشر، يُعبر عن أثر العلاقة السياسية بين بني مرين وبني الأحمر في الفنون المعمارية والصناعية، كما يُعبر أيضاً عن حقيقة تاريخية ثابتة، هي هجرة الفن الأندلسي الغرناطي إلى المغرب بعد انتهاء دولة الإسلام في الأندلس».

وخلاصة القول: إن العرب والمسلمين أوْلوا الآثار المعمارية اهتماماً خاصاً لارتباطها الوثيق بحياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، لذا استطاعوا وبكل جدارة أن يعملوا من الفن المعماري طرازاً إسلامياً خاصاً بهم؛ لأنهم يعرفون تمام المعرفة أن العوامل والبواعث في المنشآت المعمارية هي أساس الحركة التاريخية.

لقد أثبت المهندس المعماري المسلم براعته الفريدة في بناء القباب والمساجد والمآذن العالية والأعمدة والقصور الضخمة والقلاع الهائلة، إضافة إلى تفننه في تحديد طبوغرافية الموقع والعناصر البيئية به مثل البحار والأنهار والجبال والغابات والصحاري وغيرها. كما حاول بنجاح المهندس المعماري المسلم أيضاً أن يجعل العمارة الإسلامية خاضعة لثوابت الدين الإسلامي، لذا أصبحت العمارة الإسلامية من أعظم المظاهر الحضارية لخدمة العقيدة الإسلامية السمحة.

علاقة علم قراءة الخطوط القديمة بعلم التاريخ الإسلامي:

يعتبر علم قراءة الخطوط القديمة ـــ كالخط المسماري الذي استعمل في تدوين حضارة وادي الرافدين، والخط الهروغليفي الذي كتب به حضارة وادي النيل وخطوط أخرى مثل اليوناني والروماني والعربي ـ من العلوم الهامة جداً للبحث في ميدان علم التاريخ؛ لأنه يعين المؤرخ اللبيب للوصول إلى المعارف التاريخية الضرورية لإكمال دراسته العلمية في مجال علم التاريخ القديم. ومما لاشك فيه أن الإلمام بعلم قراءة الخطوط القديمة هو الوسيلة الفريدة والناجحة لتجنب ضياع الوقت والوقوع في أخطاء تاريخية خطيرة، ولذا تهتم الكثير من

الجامعات العريقة في العالم بهذا الجانب اهتماماً بالغـاً، وتجعلـه مـن المتطلبـات العامة لنيل الدرجات العالية في علم التاريخ القديم، وعليه برز المستشرقون في قراءة الخطوط القديمة ومن ثم بدؤوا تحقيق التراث العلمي العربـي الإسـلامي، فأدخلوا عليها التحريفـات الكاذبـة، وأصبـح أصحـاب الـتراث مـن مؤرخـي العرب والمسلمين يتلقون تاريخهم على أيدي شرذمة من المستشرقين الحـاقدين على العرب والمسلمين، فماذا نتوقع؟

يقول كل من **طه باقر** وزميله **عبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكـر: «كما أن خط العصر الواحد يختلف في أطرزته من كاتب لآخر، الأمـر الـذي يقتضي من الباحث التاريخي أن يكون على معرفـة بأشـكال خطـوط الوثـائق التاريخية وتطورها، ويتفـرع مـن علـم البيلوغرافيـا العـام فـرع خـاص يسـمى بمصطلح ابيغرافيا، ويتعلق بحل رمـوز الخطـوط القديمـة ويدخـل ضمنـه معرفـة وفحص المواد المختلفة التي استعملت في التدوين في العصور الماضيـة، كـألواح الطين والأحجار وأوراق البردي (البابيروس والرقوق وأنـواع الـورق المختلفـة من بعد اختراعـه في الصـين منـذ القـرن الثـاني الميـلادي). ومـع أنـه بإمكـان الباحث التاريخي الذي يبحث في حقبة تاريخيـة معينـة أن يستعين بالترجمـات الموثوق بها التي وصفها المختصون، بيد أنه مع ذلك يستحسن أن يكون علـى شيء من الإلمام بالنصوص القديمة التي يجمع منها مادة بحثه ليكون علـى درايـة بمعاني ترجماتها والمصلطحات الخاصة المستعملة في ذلك».

لقد اشتهر الخط العربي بزخرفته الرائعة، حيث إن أشكال حـروف اللغـة العربية تمتاز بسيقانها وأقواسها ونقاطها ومداتها، وهذه الصفات النـادرة الـتي اختصت بها اللغة العربية تعطي الخط العربي حسناً وجمـالاً، لـذا صـار الخـط العربي يرى على المباني والتحف وغير ذلك، وهذه الظاهرة التي تميز بها الخط العربي دفعت المؤرخ العربي المسلم أن يدرس عن كثب جميـع أشـكال الخـط العربي، مثل الكوفي والنسخ والثلـث والرقعـة والديواني والفارسـي والمغربـي

والغبار والطومار والقيرمة وغيرها؛ لكي يتحقق من أصالة وصحة المعلومات التاريخية التي تحتوي عليها الوثائق المكتوبة بهذه الخطوط، لذا يجب على المؤرخ ليكون ناجحاً أن يتعلم ويتدرب على بعض أشكال الخط العربي والخطوط الأخرى وإلا ستبقى معارفه التاريخية قاصرة وناقصة.

ويؤكد **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر أن علم قراءة الخطوط من العلوم الرئيسة للباحث في علم التاريخ، فيقول: «علم قراءة الخطوط من العلوم الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ، منذ أقدم العصور حتى أزمان متأخرة، وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط الشرقية تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها. ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت وتجنبه الوقوع في كثير من الخطأ. ويتضح أهمية هذه الدراسة في فروع عديدة مثل تاريخ مصر القديم، وتاريخ بلاد العرب قبل الإسلام، وتاريخ اليونان وتاريخ الرومان، وتاريخ العصور الوسطى، والتاريخ الأوربي الحديث جزء من القرن السابع عشر، وتاريخ الشرق الأدنى حتى القرن التاسع عشر، وذلك بالنسبة للغات التي تتعلق بهذه الموضوعات. أما بعد ذلك فتصبح الخطوط واضحة مقروءة. ولقد نمت الخطوط العربية ـ مثلاً ـ وتطورت وكتبت بأشكال مختلفة. فمنها الطومار، ومنها النسخي والرقعة والثلث والكوفي والفارسي والمغربي والغبار.. وفي الشرق الأدنى العثماني ـ حيث كانت اللغة التركية تكتب بالحروف العربية ـ كتبت الوثائق العثمانية بعدة خطوط، مثل الخط الديواني، وخط القيرمة. وتستلزم قراءة هذين الخطين تعليماً خاصاً، وخط القيرمة مثلاً خط معقد كثير الزوايا والثنايا، ويمكن أن تكتب به معلومات كثيرة في حيز ضيق، فضلاً عن الأرقام الخاصة به. ولقد أوجده العثمانيون لتحرير الشؤون الإدارية والمالية؛ ولكي يحيطوا محفوظاتهم بالكتمان والسرية».

وخلاصة القول: ستبقى الحقائق التاريخية الهامة كالرموز والطلاسم في بطون الوثائق؛ لأنها تحتاج إلى المتخصصين في علم قراءة الخطوط القديمة

لفكها وتحقيقها وتحليلها تحليلاً علمياً. وإذا لم يتجه بعض أبناء الأمة العربية والإسلامية إلى دراسة علم قراءة الخطوط القديمة دراسة أكاديمية متأنية، فسنظل نتلقى تاريخ الأمة العربية والإسلامية عن طريق المستشرقين الذين يشتغلون ليلاً ونهاراً في هذا الميدان؛ لكي يقدموه بطريقتهم الخبيثة المشوهة؛ لأن مؤرخي العرب والمسلمين المعاصرين أعطوهم هذه الفرصة الذهبية، لذا آن الأوان أن يعي شباب الأمة العربية والإسلامية خطورة الموقف ويبدؤوا بدراسة علم قراءة الخطوط القديمة، ليتمكنوا من تحقيق التراث العربي والإسلامي تحقيقاً علمياً أميناً (ماحك جلدك مثل ظفرك).

المعروف أن الخط في أي لغة يحصل عليه بعض التغيرات عبر العصور، لذا يلزم الباحث في مجال علم التاريخ القديم والوسيط أن يكون على دراية تامة بذلك حتى يستطيع أن يستفيد من الوثائق التاريخية القديمة. والجدير بالذكر أن المتخصص في علم قراءة الخطوط القديمة يمكنه بجدارة أن يحدد مؤلف وتاريخ وثيقة بمجرد النظر إلى خطها الذي دُوِّنت به.

علاقة علم النميات بعلم التاريخ الإسلامي:

من مصادر علم التاريخ الهامة جداً العملات القديمة المعروفة باسم علم النميات أو علم النقود والمسكوكات، حيث تمثل هذه النقود المسكوكة الفترة الزمنية التي صنعت فيها، لذا يستطيع المؤرخ الفطن أن يستخلص معارف تاريخية نادرة من هذه النقود القديمة مثل الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وأسماء الحكام. والجدير بالذكر هنا أن التعامل بالنقود والمسكوكات بدىء بعد القرن السابع قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام، لذا يتبين للقارىء أنها قديمة جداً، أما بالنسبة للأمة الإسلامية فأول من أمر بضرب المسكوكات محلياً الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. أما الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٧ هجرية) فهو أول

من ضرب المسكوكات العربية الخالصة، وأطلق عليها اسم كل من الدينار والدرهم والفلس. وعليه في سنة (٧٧ هجرية) استقلت العملة العربية والإسلامية تماماً عن العملتين البيزنطية والساسانية. والمتفق عليه لدى المؤرخين الكبار أن النقود والمسكوكات (النميات) من الوثائق التاريخية القديمة التي يصعب جداً الطعن في صدقها وقيمتها التاريخية.

ويقول كل من **طه باقر** وزميله **عبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «وكثيراً ما اكتشف الباحثون من دراستهم المسكوكات أسماء ملوك وحكام ومدن مجهولة لم يرد ذكرها في التاريخ ولم يعرف عنها أشياء مهمة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر في اتساع الصلات التجارية القديمة العثور على مسكوكات عربية في شمال أوربا، الأمر الذي يشير إلى اتساع التجارة العربية أو اتساع التعامل العالمي في النقود العربية.. وتُعتبر المسكوكات أيضاً وثائق عظيمة في تثبيت أو نقض الكثير من الأخبار التي وصلت إلينا عن طريق المدونات التاريخية المختلفة وحتى الوثائق الرسمية منها، فنحن نعلم أن الكثير من الحوادث التاريخية قد تجيء مخالفة لما هو واقع وأن الكثير منها قد جاءت عن طريق السماع أو متأخرة نسبياً، ومن تلك الحوادث مثلاً تحديد زمن حكم بعض الملوك والخلفاء أو تثبيت تاريخ ثورات أو انقضائها وغيرها من الحوادث التاريخية. فالنقود إذاً وثائق هامة يمكن الاعتماد عليها إلى درجة عظيمة في استنباط الحقائق.. ومما تجدر ملاحظته أن الألقاب الفخرية التي تظهر على المسكوكات الإسلامية لها أهمية كبيرة إذا ما أوليت دراسة أصولها وتطورها وما يحيط بها من ظواهر اجتماعية وسياسية ودينية وما تقدمها أو لحق بها من ظروف تاريخية عامة».

لاشك أن النقود والمسكوكات (علم النميات) تفيد الباحث في ميدان علم التاريخ كثيراً؛ لأنها تحمل في أغلب الأحيان صورة وأسماء الملوك والأمراء للدولة التي كانت تحكم حينئذ بهؤلاء، من ذلك يستطيع المؤرخ أن يستخلص

مادة دسمة يمكنه استخدامها في بحوثه التاريخية، مثل تحديد تاريخ وجود الدولة التي تمتلك هذه العملة، كذلك مكانتها الاقتصادية والاجتماعية والتجارية. والمعروف أن أعداداً هائلة من المجموعات السياسية لم تعرف إلا عن طريق نقودها التي كانت متداولة في ذلك الوقت. كما أن النقود والمسكوكات تفسر بوضوح تام مقام الدولة المجاورة لها. إذن نستطيع القول: إن النقود والمسكوكات تعطي فكرة واضحة لا غبش حولها عن مركز الدولة صاحبة العملة بين دول العالم.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وعلم النميات أو النومات؛ أي علم النقود والمسكوكات من العلوم الهامة في دراسة نواح من التاريخ، فالعملة والأنواط بما تحمله من صور الملوك والأمراء وأسمائهم وذكر الحوادث التاريخية وسنوات ضربها تقدم للباحثين مادة تاريخية قيمة بالنسبة للتاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب على السواء، فالعملة اليونانية مثلاً تكشف عن كثير من الحقائق في تاريخ الجماعات السياسية التي كانت ذات كيان خاص، مكنها من أن تسبك هذه العملة و لم يعرف وجود بعض هذه الجماعات إلا عن طريق عملتها التي حفظها التاريخ من الضياع، وتساعد العملة والمسكوكات بعامة في دراسة تاريخ الأساطير والعبادات والفنون والعلاقات السياسية ونشاط التجارة أو فتورها.. ونجد مثلاً آثار العملة الصينية في شرق أفريقيا، وآثار العملة العربية في شمال غربي أوربا، وآثار العملات الإيطالية في المشرق؛ دليل على مدى نشاط التجارة بين هذه الأنحاء المتباعدة من العالم في أثناء العصور الوسطى».

وخلاصة القول: إن النقود والمسكوكات تهدي إلى تاريخ بعض الحوادث التاريخية الهامة، وإلى دور ضربها وإلى أسماء حكامها، وإلى مدى اتساع رقعة حكم الدولة صاحبة العملة. ويذكر شيخ علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته: «أن ضرب النقود في العالم الإسلامي من اختصاص رئيس الجماعة

السياسية خليفة أو سلطان أو أمير أو والي أو حاكم» لذا أصبح علم النميات من المناهل الضرورية للمؤرخ في مجال التاريخ السياسي.

يرتبط علم النقود والمسكوكات ارتباطاً قوياً بالحالة الاقتصادية للدولة التي يرغب الكتابة عنها، حيث إن العوامل المالية لها تأثير عظيم في توجيه دقة علم التاريخ. كما يساعد علم النقود والمسكوكات على تفسير بعض الأساطير والديانات القديمة، لهذا اهتمت أقسام علم التاريخ ببعض الجامعات الشهيرة بعلم النميات؛ لأن هذا العلم يمكن المؤرخ بالضبط من معرفة تاريخ ومكان بعض الحوادث التاريخية الهامة، كما يقود أيضاً إلى بعض المعلومات التاريخية التي أغفلها المؤرخون الكبار.

علاقة علم السياسة بعلم التاريخ الإسلامي:

نظم القرآن الكريم والسُنة النبوية بوضوح كامل قوانين وأنظمة كل من علم التاريخ وعلم السياسة في محيط الأمة الإسلامية. وللثقافة العامة درس مؤرخو العرب والمسلمين الأنظمة السياسية لجيرانهم الفرس والسريان والبيزنطيين. لذا كان لكل من علم التاريخ وعلم السياسة أثر عظيم على مجريات الأحداث المختلفة التي كانت تؤثر تأثيراً عظيماً في الحركة التاريخية.

والمعروف أن مادة علم السياسة هي المادة المفضلة للباحث في مجال علم التاريخ من بين العلوم المساعدة لهذا العلم الحيوي، ولا يمكن فهم علم التاريخ جيداً دون الوقوف على ماتم من الأحداث في علم السياسة. ومن جهة أخرى فإن علم التاريخ يعتبر بحق مخزن تجارب الأمم، لذا فهو الموجه بل المدرسة النظامية لعلم السياسة. إذن نستطيع القول: إن علم التاريخ يعتني بالماضي بينما علم السياسة يختص بما قدمه التاريخ لدراسة الحاضر والتخطيط للمستقبل.

يقول **قاسم يزبك** في كتابه آنف الذكر: «أما السياسة، فهي كالأخلاق والفلسفة والاقتصاد والفن، أجدّ المرامي الإنسانية الكبرى. ولها معضلاتها

المميزة، إذ لكل مرمى من المرامي الإنسانية معضلاتـه الخاصـة بـه. ومما يقـرر هذه المعضلات أمران:

(١) طبيعة الظواهر الأولية التي تدخل معالجتها في نطاق هذا المرمى.

(٢) والمغترب الذي ينظر من زاويته إلى هذه الظواهـر، بغيـة التعـرف إلى ميزاتها. وتقييم هذه الميزات وربطها إذا أمكن بما هو ذو علاقة بها.

ومن هنا يتضح أن أهمية التـاريخ بالنسـبة لعلـم السياسـة أصبحـت أمـراً تقليدياً، فلا أساس لعلم السياسة بدون علم التاريخ، ويضـاف إلى هـذا الأمـر أن لاثمرة للتاريخ بدون علم السياسة... وهكذا يتبين أن التاريخ ذاكرة الجنس الإنسـاني بكاملـه، وذو صلـة كبـيرة بالسياسـة بـل هـو مسـتودع السـوابق السياسية. وإضافة إلى ذلك فإن فائدته كبيرة في توسيع المدارك وتصوير الناس والإنصاف في الحكم».

كان الانطباع السـائد لـدى القليـل جـداً مـن علمـاء العـرب والمسـلمين الأوائل أن علم السياسة يحتوي على بعض النصائح الخاصـة بالسـلاطين والملـوك والأمراء والولاة والحكام، لذا من الصعب على المؤرخ المتخصـص الاعتمـاد علـى علم كهذا ليكون مصدراً من المصادر الرئيسة للبحث في مجال علم التاريخ. وعليه كان مؤرخو العرب والمسلمين يحثون زملاءهم المؤرخين المبتدئين أن يبذلوا جهـداً كبيراً في دراسـة مؤلفـات علـم السياسـة، وفحصهـا بدقـة متناهيـة ونقدهـا لكـي يتمكنـوا مـن اسـتخلاص المعـارف الصحيحـة الدقيقـة الـتي يحتاجونهـا؛ لأنهـم يعتقدون أن علم التاريخ هو مدونـة الأمـة وصـدى حضارتهـا، وهدفـه الأول والأخير جلاء الماضي والكشف عن الحقيقة الناصعة.

الثابت أن علم التاريخ يشرق ويزهو عندما تزدهر الحضارة وتظهر العدالة واضحة وجلية في ميدان علم السياسة. ومع هذا كله كان هناك ارتباط وثيق بـين علمي التاريخ والسياسة. ومن الإنصاف أن يعرف القارىء أن كثـيراً مـن علمـاء

السياسة الأوائل كانوا على مستوى علمي عال، ويتضح ذلك من مؤلفاتهم التي تمتاز بعمق البحث الذي بذل لإخراجها. ولاشك أن المتخصصين في كل من علم التاريخ وعلم السياسة استفادوا فائدة عظيمة وجليلة من هذه المصنفات الرائعة؛ لأنهم استطاعوا استنباط الحقائق التاريخية النادرة.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «كتبت منذ القرن الثالث الهجري وبدون انقطاع سلسلة من الكتب الفكرية السياسية، ذات جذور ومستند من التاريخ الإسلامي والأحداث التي مرت به وبغيره. ولكنها تهدف إلى هداية الملوك والأمراء سواء السبيل في الحكم على الأساس الإسلامي القويم، وقد سميت هذه الكتب أحياناً بآداب السلطان وأحياناً بسياسة الملوك، ويزعم صاحب كل مؤلف فيها وضع نظرية سياسية تطبيقية، متكاملة أو شبه متكاملة على أساس من العقيدة الإسلامية لسياسة الحكم، على أن هذه الكتب ظلت جميعاً في إطار النصيحة والموعظة لم تجاوزها إلى إيجاد النظرية السياسية الكاملة.. الرابطة الوحيدة التي كانت تربط هذه الكتب بالتاريخ وتجعل منها نوعاً من فلسفة التاريخ السياسي أو تنظير الحكم هي الأمثلة العديدة التي كانت تلتقط من التاريخ حسب المناسبات للتدليل على صحة الرأي المقترح. وكانت تشتمل أحياناً على مختصرات للتاريخ الإسلامي».

وخلاصة القول: يتبين الآن للقارىء أن علم التاريخ يعتمد اعتماداً كبيراً على الحقائق التاريخية التي مصدرها الأول والأخير الإنسان صاحب الحس المرهف والعاطفة الإنسانية. وعليه يجب على المؤرخ الناجح أن يتوخى الدقة في نقل وتحليل المعلومات التي يتناولها سواء كان المصدر علم السياسة أو غيره، وأن يضع نصب عينيه هدفاً واضحاً، وهو أن هناك ارتباطاً شديداً بين العقيدة الإسلامية وعلم التاريخ، لذا يلزم أن تبرز في كل حدث أو تفسير أو تأويل معالم العقيدة الإسلامية السمحة.

لقد كانت العلاقة بين علمي التاريخ والسياسة قوية جداً إلى درجة أنهما أوشكا أن يندمجا، وهذا قاد المؤرخين إلى ابتكار علم جديد يسمى (التاريخ السياسي) غايته الاطلاع على المعارف المتنوعة عن طريق تسلسل الأحداث لا عن طريق صنع القوانين المجردة. كما يلزم القارىء أن يعرف أيضاً أن كلاً من علم التاريخ وعلم السياسة علمان خبريان، ولا يمكن أبداً أن يقدما الحقيقة الثابتة المبنية على اليقين مثل العلوم الرياضية.

علاقة علم الاجتماع بعلم التاريخ الإسلامي:

في كثير من الأحيان يوجه مستوى الحياة الاجتماعية الأحداث التاريخية، لذا يظهر واضحاً ما توصل إليه شيخ علم الاجتماع عبدالرحمن بن خلدون ـ الذي يعتبر علم التاريخ من العلوم الهامة جداً ـ من أن أسباب تدهور الدول؛ الترف والمجاهرة بالفسق والفجور، والظلم. والمعروف أن بعض الظواهر الاجتماعية تكشف الكثير من الحقائق التاريخية الثمينة، والجدير بالذكر أن عبد الرحمن بن خلدون ذكر في مقدمته: أن المجتمع كائن حي يبدأ طفلاً (البداوة) ثم ينمو ويكتمل (العمران) وأن العرب أهل كبر وعصبيات، ولكن الدين الإسلامي صقلهم وجعلهم خير أمة، ولذا فإن من الصعب جداً حكمهم والسيطرة عليهم إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية السمحة، من هنا يتضح أن الحياة الاجتماعية لها دور بارز في تسيير الحركة التاريخية، وأن علم الاجتماع من العلوم الموصلة لدراسة علم التاريخ.. وعليه نرى أنه يلزم المؤرخ الذي يستهدف الفهم الكامل لعلم التاريخ عن كثب أن يدرس علم الاجتماع وأن يتغلغل في أعماق المجتمع وأن يشعر مشاعرهم وأن لايكون في عزلة عنهم.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «من الضروري للباحث في علم التاريخ ألا يكتفي بتحصيل ثقافته العامة أو الخاصة من الكتب والمراجع فحسب، دون دراسته وخبرته بالحياة العملية ذاتها، سواء أكان ذلك في دائرة

أهله وعشيرته أم كان في نطاق قومه وبلده أم في محيط دوائر أوسع وأعم في المجتمع الإنساني، وأن الخبرة التي يكتسبها الباحث بالملاحظة والممارسة العملية بحسب ظروفه، من شأنها أن تجعله أقدر على فهم أعمال الإنسان في الزمن الماضي، وتقدير الظروف التي أحاطت به والتي أدت إلى اتخاذ مسالك معينة في مواجهة تيارات أو مؤثرات محدودة، ولا يجوز لدارس التاريخ أن يكون في عزلة عن البشر، حتى يصبح أقرب إلى فهمهم والكتابة عنهم مهما بعد بينه وبينهم الزمان، إذ إن الرابطة البشرية قائمة على الرغم من اختلاف الزمان والمكان».

أدرك علماء العرب والمسلمين في مجال علم التاريخ العلاقة القوية بين علمي الاجتماع والتاريخ، حيث إن علم الاجتماع يمدهم بتصور رائع للمراحل التاريخية، ويقدم لهم أيضاً أفكاراً علمية راقية، تتعلق في دراسة نماذج المجتمع وذلك بعرض التفاعل الحقيقي بين الشخصية والقوى الاجتماعية، لذا اتجهت الدراسات التاريخية في العصور الإسلامية إلى الاهتمام بجميع العوامل الاجتماعية التي تؤثر على حياة الإنسان على كوكب الأرض، وعليه نرى أنه ليس في وسع المؤرخ أن يعمل بعيداً عن علم الاجتماع؛ لأن الأخير فعلاً يساعد على البناء التاريخي لموضوع أي بحث.

وتظهر ملامح ارتباط علم التاريخ بعلم الاجتماع في قول عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته: «فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو لها الأقوال وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول النطاق فيها

والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق، وأن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها».

وخلاصة القول: لقد تبين أن علم الاجتماع يهتم بدراسة الإنسان من خلال علاقته بالمجتمع، كما أن علم التاريخ يعتني أيضاً بهذا الجانب الحيوي، لذا يمكن القول: إن كلاً من علم التاريخ وعلم الاجتماع متلازمان، ولهذا السبب اندفع العلامة عبد الرحمن بن خلدون وأسس علم الاجتماع الذي يختص بدراسة المجتمع البشري من حيث نشوءه وتطوره وانحلاله. والجدير بالذكر أن مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل كانوا ملمين بمبادئ علم الاجتماع غير أنهم اعتبروه مقدمة لعلم الأنساب.

أما عبد الرحمن بن خلدون فقد قام بدور رائع حيال علم الاجتماع، حيث فصله تماماً عن علم الأنساب، وجعله علماً مستقلاً وأرسى قواعده وقوانينه، فهو بحق مؤسس علم الاجتماع دون منازع، ولقد اهتم المؤرخون المعاصرون لابن خلدون والتابعون له بهذا الفن؛ لأنه يهتم بالجوانب الاجتماعية التي تعين الباحث في مجال علم التاريخ على تفسير وتحليل بعض الحركات التاريخية.

اللغات وعلاقتها بعلم التاريخ:

تمتعت اللغة العربية (لغة الاشتقاق) بمكانة مرموقة بين لغات العالم، ففي الدولة الأموية كانت لغة السجلات المالية والخراج والدواوين والأعمال الإدارية والسياسية والاجتماعية، أما في الدولة العباسية فقد وصلت إلى درجة عالية جداً ليس فقط عند العرب ولكن بين الأعجام أيضاً؛ لأنها كانت لغة

القرآن والسُّنة النبوية والعلم والتجارة والحياة الاجتماعية. وكذلك لتفوقها بمفرداتها وأفكارها ومصطلحاتها وتعبيراتها الرائعة عن أي لغة في المعمورة آنذاك، لذا عكف المستشرقون على تعلمها وإتقانها؛ لكي يتمتعوا بجمالها وعذوبتها وليصلوا إلى فهم المعارف الأولية التي دوّنت بها عن الدولة الإسلامية العظيمة. نمت الحضارة الإنسانية على يدي كبار مفكريها، ولأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم لكي يسيطروا على الأفكار العلمية الرئيسة لأي موضوع تحت الدراسة لابد لهم أن يعرفوا عن كثب اللغة المكتوب بها.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «أن فهم نصوص الوثائق التاريخية التي تكون مادة البحث التاريخي، يتوقف على معرفة الباحث التامة باللغة المدونة بها، واللغات كما هو معروف تتطور وتتغير معاني مفرداتها من عصر إلى آخر ومن كاتب إلى آخر. كما أن استعمالات المفردات اللغوية لمصطلحات فنية تتغير من عصر إلى آخر. وتعين الاستعمالات اللغوية إذا أخذ بعين الاعتبار أزمان تطورها على تعيين زمن الوثائق التي هي غفل من التاريخ لانخرامها، وتساعد على تعيين اسم مؤلفها في حالات كثيرة.. ولكن ما يؤسف عليه أن المعجمات العربية لا تذكر تاريخ استعمال المفردات اللغوية أو الفن أو العلم الذي استعملت فيه كمصطلحات، وأن هذا النقص خطير يتوجب على الباحثين في التاريخ كثيراً بالنسبة إلى تعيين أزمان المخطوطات العربية بدلالة المفردات والمصطلحات اللغوية الواردة فيها».

لا ريب أن تعلم اللغة الأجنبية التي كتب بها أي بحث معد للدراسة تعتبر ضرورية للباحث؛ لأنها السبيل الفريد للوصول بسهولة متناهية إلى معرفة صفات أهل البحث المقصودة من حيث كل من ثقافتهم ومعارفهم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. كما أن إجادة هذه اللغة الأجنبية توسع مدارك الباحث وتمنحه القدرة الفياضة على البحث والتنقيب والاستقصاء ليس

فقط للبحث المُعد للدراسة ولكن لجميع البحوث التي استعملت فيه هذه اللغة الأجنبية. لذا لايجوز أبداً أن تمر الفرصة على المؤرخ النابه دون أن يجني الثمرات العلمية التي تقدمها اللغة الأجنبية التي دون بها البحث الذي أعد للدراسة.

وبواسطة اللغة الأجنبية الخاصة بموضوع أي بحث مقدم للدراسة سيتعلم المؤرخ آفاقاً واسعة حول هذا البحث. والجدير بالذكر أن الرجوع إلى الترجمة لبعض المراجع لا تشبع الفضول لدى الباحث ولا تفي تماماً بالمطلوب لمن أراد أن يتعمق في دراسته للحصول على الفائدة القصوى، والمتعارف عليه لدى المؤرخين الكبار أن استخراج المعلومات التاريخية من الوثيقة بلغتها الأصلية تُعتبر مستنداً أولياً، وهذا بحد ذاته يُعتبر من المعايير الهامة لأصول البحث العلمي.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «واللغات من أهم العلوم المساعدة التي ينبغي أن يتزود بها الباحث في علم التاريخ. فلابد أولاً من معرفة اللغة الأصيلة الخاصة بالموضوع التاريخي المراد بحثه والكتابة عنه؛ لأن الترجمات التي تكفي لتحصيل الثقافة العامة لا تفي حاجة المؤرخ للتوفر على تفهم الناحية التي يريد أن يتناولها، والراغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ اليونان القديم لابد له من معرفة اللغة اليونانية القديمة، والراغب في الكتابة عن موضوع من تاريخ العصور الوسطى في أوربا يلزمه أن يكون عارفاً بلاتينيتها، ومن يرغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ عصر النهضة فلابد له من معرفة اللغة الإيطالية وهكذا.. إذ لابد لفهم النصوص التاريخية من معرفة لغة ذلك العصر التاريخي المعين. وليست اللغة علامات جبرية أو أرقاماً حسابية تستخدم كما في العلوم الطبيعية للدلالة على معان نسبية أو متغيرة أو متضادة، وقد تدل كلمة واحدة على معان متفاوتة أو مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه وتبدو هذه الظاهرة شديدة الأهمية في دراسة التاريخ، كما في غيره من الدراسات وعلى الأخص في الدراسات الأدبية. وبذلك

فلابد من معرفة اللغة التي يقرأ فيها دارس التاريخ، فضلاً عن الدراية بما نال ألفاظها من المعاني المتفاوتة أوالمختلفة، حتى لا يفسر ما يقرأ على غير حقيقة».

وخلاصة القول: يجب على الباحث في علم التاريخ أن يركز على معاجم اللغة التي كتب فيها البحث المقرر دراسته؛ لأن بعض هذه المعاجم يعطي تاريخ استعمال كل من المصطلح العلمي والمفردات ولبعض التعبيرات العلمية التي تهم المؤرخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية الناصعة. والمتواتر أن المؤرخ الناجح هو الباحث الذي لديه القدرة العلمية التي تمكنه من تحديد تاريخ الوثيقة بدلالة المفردات والمصطلحات اللغوية التي وردت فيها. والجدير بالذكر أن معاجم اللغة العربية لا تولي ذكر تاريخ استعمال المفردات أو المصطلحات أو التعبيرات أي اهتمام، ولكن المعاجم الأجنبية مثل معجم أكسفورد الإنجليزي الموسع يهتم بهذا الجانب اهتماماً بالغاً؛ لأنه بهذا يساعد الباحث ويوفر له الوقت الثمين، لذا يجب على شباب الأمة العربية والإسلامية أن ينتبهوا لهذه النقطة الخطيرة محاولين تعديلها خدمة للباحثين في مجال علم التاريخ.

علاقة علم الآثار بعلم التاريخ:

بدأ مؤرخو العرب والمسلمين البحث عن الحقائق التاريخية بكل تفان وجدية عن طريق المكتبات والمتاحف، ثم أخيراً اهتدوا إلى استخدام الحفريات لاستخراج المخلفات الماضية وبقاياها الأثرية مثل الأبنية والفنون والزخارف والآلات المختلفة والمدونات الخطية من باطن الأرض، ونجحوا بذلك نجاحاً باهراً، ثم أطلقوا على هذه الآثار العظيمة اسم علم الآثار الذي أصبح في مقدمة العلوم اللازمة لدراسة علم التاريخ، وعليه صار هذا العلم من أهم وأصدق العلوم التي يرجع إليها الباحثون في ميدان علم التاريخ؛ لأنه عن طريقه يستطيع المنقبون الآثاريون أن يحددوا أزمان الطبقات الأثرية.

يقول كل من **طه باقر** وزميله **عبدالعزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن علم الآثارArchaeology أوثق وسيلة لجمع مصادر التاريخ الأصلية، التي لايمكن أن يتطرق الشك إلى أصالتها والاعتماد عليها، ومع قصر عمر هذا العلم لا يقل في أهمية منجزاته واكتشافاته العلمية عن العلوم الأخرى، فقد استطاعت معاول المنقبين أن تكشف عن حضارات وأقوام قديمة لم تكن تعرف عنها شيئاً حتى أسماءها، فاتسعت بذلك آفاق المعرفة البشرية عن ماضي الإنسان وتطوره في سلم الحضارة منذ فجر حياته في الأطوار الهمجية في عصور ما قبل التاريخ التي شغلت زهاء ٩٩٪ من حياته على هذه الأرض، وكيف تدرجت المجتمعات البشرية في تطورها الحضاري إلى أن تحققت تلك الظاهرة العجيبة في ظهور أولى الحضارات الناضجة في أرجاء الوطن العربي، وفي مقدمتها حضارتا وادي الرافدين ووادي النيل قبل أكثر من خمسة آلاف عام.. فإن الطرق والأساليب العلمية المضبوطة التي اهتدى إلى استنباطها الباحثون في حقل الدراسات الأثرية، مثل تعيين أزمان الطبقات الأثرية وضبط الأدوار التاريخية وتسلسلها وأساليب دراسة وتصنيف المواد الأثرية التي تكشف في أثناء التنقيبات كل ذلك وغيره من منهج البحث الأثري يمكن الباحث التاريخي من الاستعانة بها في جمع مادته ومصادره والإفادة منها في دراساته التاريخية».

لاشك أن علم الآثار في الآونة الأخيرة يُعتبر من المصادر الضرورية للباحث في مجال علم التاريخ، حيث إنه مرجع محايد ومعاصر للأحداث الماضية التي يحاول المؤرخون الوصول إليها بوسائل متنوعة، والحقيقة أن علم الآثار يمتاز بأصالته التاريخية؛ لأنه لم يتغير من مصنف إلى مصنف آخر أو من راو إلى راو. كما أن علم الآثار يكشف بوضوح وجلاء عن الواقع والحقائق التاريخية لأصحاب الآثار، التي وجدها المنقبون بحفرياتهم في باطن الأرض

محبوسة منذ آلاف السنين (قبل أكثر من مئتي ألف عام). كما يقدم علم الآثار تفسيراً رائعاً ودقيقاً عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والتربوية. والجدير بالذكر أن المؤرخين في المعمورة يصرون وبشدة على أنه يجب اعتبار علم الآثار شاهداً مادياً ثابتاً للمستوى الحضاري الذي وصلت إليه الحضارة الإنسانية، ولذا فإن معظم علماء دول العالم يعملون على قدم وساق في مجال علم الآثار، وقد نجح الكثير منهم نجاحاً هائلاً، حيث حققوا بواسطة حفرياتهم المتقدمة بعض أنواع التقنيات والأدوات التي تدل بوضوح على حصيلة حضارية راقية.

ويذكر **زكي محمد حسن** في بحث له تحت عنوان: «دراسات في منهج البحث في التاريخ الإسلامي» ـ نشر في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة (١٣٧٠هجرية) ـ، جاء فيه: «إن دراسة الآثار أصبحت ضرورية جداً لبعض الدراسات التاريخية، مثل كل من التاريخ السياسي والحضاري والتربوي، وعالم الآثار يهتم بترتيب مخلفات وبقايا الحضارات القديمة، وبتفسيرها تفسيراً علمياً، واستنباط الحقائق التاريخية الناصعة منها، والباحث في علم الآثار لا يقف في دراسة هذه المخالفات عند ما له قيمة فنية منها فقط، بل إنه يفحصها جيداً ويعمل على معرفة تاريخها، وتحديد مستوى الحضارة التي أنتجتها، والأغراض التي كانت تستعمل فيها، وهو يصل إلى هذا كله بأساليب علمية متقدمة جداً، قوامها المشاهدة والمعاينة والمقارنة والاستنباط».

وخلاصة القول: لقد اتجه علماء التاريخ إلى دراسة علم الآثار دراسة علمية متأنية في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وذلك ليتمكنوا من الحصول على دلالات تاريخية عن أوضاع الماضي السحيق، لذا أخذوا يحفرون في المناطق التي كانت كثيفة بالسكان ثم هجرت، بأسلوب علمي دقيق، فوجدوا مخلفات مادية كثيرة توحي بحقائق ومعارف تاريخية هامة من حيث الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والدينية.

أعطت اليقظة الإسلامية بين شباب العالم الإسلامي دفعة قوية لعلم الآثار في الاتجاه الصحيح، حيث بدأت الحفريات الحديثة تنقب ليلاً ونهاراً في جميع المناطق التي كانت آهلة بالناس، والتي ترجع في تاريخ طبقات الاستيطان فيها إلى ما بعد القرن السابع قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام، لذا حصلوا على نتائج رائعة أثبتت تفوق أجداد العرب والمسلمين الأوائل في كل من العلوم الأساسية والتطبيقية والفنية على غيرهم من الأمم، ولقد كان الأجداد رواداً في جميع العلوم؛ لأن لهم شخصيتهم وطباعهم وأسلوبهم، وهكذا ستبين الأيام المقبلة الكثير من الحقائق المجهولة حيال جهابذة الحضارة الإنسانية؛ لأن معظم إنتاجهم الفني والعلمي مغمور في باطن الأرض ينتظر المهتمين أن ينتبهوا لأهميته في البحوث التاريخية، فينبشوه في حفرياتهم المتطورة لكي يقدموه للعالم أجمع.

علاقة علم الأختام بعلم التاريخ الإسلامي:

المعروف أن علم التاريخ له اتصال عظيم بعدد كبير من العلوم الإنسانية التي تُعتبر علوماً مساعدة لعلم التاريخ؛ لأن علم التاريخ يتناول في الحقيقة جميع نشاطات الإنسان على كوكب الأرض، ومن بين هذه العلوم المساعدة لعلم التاريخ علم الأختام (والمعروف أحياناً بعلم الطمغات)، لذا يلزم من يتصدى للكتابة في ميدان علم التاريخ القديم أن يكون على دراية قوية بعلم الأختام؛ لأن هذا المتطلب سيكسب المؤرخ ثقافة عامة في المعرفة التي ستكون دون ريب مصدراً هاماً للباحث في البناء التاريخي الذي هو بصدد إنجازه.

يوصي الباحثون في مجال علم التاريخ ألا يكتفي المؤرخ أبداً بمراجعه التاريخية البحتة، بل لابد له أن يدرس عن كثب العلوم المساعدة لهذا العلم العظيم مثل علم الأختام، ولاشك أن العلوم المساعدة لعلم التاريخ تساعد على تعمق الأضواء الكاشفة عن طبيعة الحدث التاريخي ودوافعه وأهدافه. من هنا ستنفتح أمام عيني المؤرخ آفاق عظيمة من الحقائق التاريخية التي هو في

أمس الحاجة إليها. والمعروف أن أختام الدول وتواقيع ولاة الأمر، تظهر على الوثائق التي تعطي أسماء وألقاب كل من الملوك والسلاطين والحكام والأمراء. أما الرنوك؛ وهي الأختام التي توضع على الدروع وملابس النبلاء والجنود فهي ذات أهمية كبيرة؛ لأنه عن طريقها يثبت المؤرخ صحة نوع الأسلحة والدروع التي كانت تستخدمها الدولة التي تحت الدراسة.

يقول كل من **طه باقر** وزميله **عبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «ومن الموضوعات الفنية المهمة التي تُعد من العلوم المساعدة في البحث التاريخي ما يعرف بمصطلح الأختام أو الطمغات Sphragistics المختص بدراسة الشارات والأختام (والرنوك) والتواقيع، حيث كانت طرز التواقيع والطمغات والرموز والرسوم المصاحبة لها تختلف من عصر إلى آخر، وبذلك يستعين الباحث التاريخي في تحديد زمن الوثيقة التاريخية الخالية من التاريخ، هذا بالإضافة إلى ما يستنتجه عن العهد الذي يبحث فيه من ناحية ألقاب الحكام والملوك والأمراء وشعاراتهم، والعبارات الخاصة التي يستعملونها في تواقيعهم، والأمثلة كثيرة على ذلك ومنها تواقيع الخلفاء العباسيين والعبارات الخاصة بكل منهم.. ويلحق بهذا النوع الشارات التي تنقش على الدروعHeraldy والأعلام وملابس النبلاء والجُند والفرسان والمحاربين. وقد استخدمت هذه الشارات والإشارات في الحضارات القديمة أيضاً وفي العصور الوسطى والعصور الإسلامية وفي العهد العثماني».

في بادىء الأمر كان علم الأختام جزءاً لا يتجزأ من الوثائق التاريخية، ولكن مالبث أن استقل وصار علماً له حيثياته وقواعده العلمية، وأصبحت الوثائق التاريخية الهامة تمر به للتأكد من أختامها؛ لأن لكل دولة أختاماً خاصة بها مصنوعة من الفخار أو الشمع أو الرصاص أو الذهب، لذا باستطاعة المؤرخ الموهوب أن يعرف بجلاء تام تواريخ وأسماء الوثائق التي بين يديه عن طريق معرفته لأختامها. وعليه نستطيع القول: إن علم الأختام (الطمغات) يكاد يكون علماً

ضرورياً للدراسات التاريخية القديمة. كما أن هناك بعض الأسلحة والدروع الهامة جداً لا يوجد عليها تاريخ الإنتاج، ولكنها تحتوي على الرنوك، بهذا يستطيع المؤرخ المدرب على معرفة الرنوك أن يحدد تاريخ صنعها على ضوء الرنوك الموجودة.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وتتصل بدراسة الوثائق دراسة الأختام التي تمهر بها، وهي ذات أنواع وأشكال مختلفة. وقد شاع استخدام أختام الشمع منذ أزمان بعيدة ولا تزال مستخدمة حتى اليوم. ووجدت الأختام المعدنية وخاصة من الرصاص، واستخدمها البابوات والملوك والأمراء بخاصة في أزمنة مختلفة، ووجدت أختام الذهب بخاصة عند ملوك الكارولنجيين في أثناء العصور الوسطى، وظلت تستخدم عند بعض الأسر الحاكمة حتى أزمنة حديثة.. ومعرفة أنواع الأختام تفيد الباحث في التثبت من صحة الوثائق التي يقوم بدراستها. ومن العلوم المساعدة في دراسة التاريخ علم الرنوك Heraldy وهو الشعر أو العلامات المميزة التي تظهر على الأختام أو الدروع أو على ملابس النبلاء والجُند أو على الأعلام.. وإن معرفة الباحث في التاريخ بهذه الرنوك تجعله قادراً على إثبات صحة ما يقع تحت يده من الدروع والأسلحة أو الوثائق أو ما شاكل ذلك. وفي الوثائق مثلاً قد يمحى الإمضاء أو التاريخ، وفي هذه الحالة تساعد العلامة الواضحة على الختم ـ إن وجدت ـ في التعريف على شيء أو أشياء من حقيقتها».

وخلاصة القول: من الضروري أن يتصف المؤرخ بثقافة واطلاع واسعين، لذا يُستحسن أن يكون ملماً بمعظم العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ؛ لأن البحث التاريخي بوجه عام يشتمل على جميع النشاطات التي يقوم بها الإنسان، وعليه يجب أن يستعمل المؤرخ جميع الفحوصات الممكنة للتثبيت من أصالة الوثائق التي يريد استخدامها في بحثه التاريخي، ومنها على سبيل المثال لا الحصر التعرف على الأختام التي تفيد كثيراً في معرفة كل من

التواريخ والأسماء والألقاب والمعتقدات والمذاهب والمكانة المادية والنفوذ السياسي وغيرها. والحقيقة أننا لسنا بحاجة إلى الإسهاب في القول عن أهمية الأختام والرنوك في الدراسات التاريخية القديمة.

علاقة علم النفس بعلم التاريخ الإسلامي:

لقد درج باحثو علم التاريخ على أن الإنسان نفسه هو موضوع البحث. لذا درسوا عن كثب وضعه النفسي ودور هذا الجانب الحيوي في صناعة علم التاريخ. والمعروف أن علم التاريخ يُساعد الأمة على معرفة حقيقة نفسها عن قرب وكذلك حقائق غيرها من الأمم المتحضرة. وعليه يجب أن يسلح المؤرخ نفسه ولو بقسط قليل من علم النفس؛ لكي يتمكن من دراسة الظواهر التاريخية دراسة علمية لها الشمول البعيد المادي.

وقد قدم **محمد الطالبي** دراسة جيدة عن التاريخ ومشاكل اليوم والغد، نشرها في مجلة «عالم الفكر» سنة (١٣٩٤ هجرية)، يقول فيها: «إن التاريخ من أهم مقومات الشخصية. فالفهم الصحيح له يعين على بنائها. ووقايتها من الذوبان الذي يهددها، وعلاجها من الأمراض النفسية التي تعثر منها، وتشل طاقاتها، فكما أن الانسان يحتاج إلى ذاكرة، فهو يحتاج إلى تاريخ؛ لأن التاريخ هو ذاكرته القومية، وعلماء النفس يعلمون الاختلال الذي يطرأ على التوازن العقلي، والنفسي إذا ما فقد المرء ذاكرته، فكما يمرض الأفراد لفقدان الذاكرة أو اضطرابها، كذلك تمرض الشعوب لضياع تاريخها أو دخول التشويش عليه».

أعطى المؤرخون اهتماماً خاصاً لموضوع علم النفس وعلاقته القوية بعلم التاريخ؛ لأنهم يعتقدون أن العواطف الإنسانية من العوامل المسيرة لكل من الأحداث والظواهر التاريخية، واستدلوا على ذلك بأعمال بعض السياسيين الذين استطاعوا وبجدارة أن يحركوا الجماهير من حولهم، لذا لا عجب إذا ركز المؤرخون العرب وركز المسلمون على دراسة الشخصية التاريخية من حيث تركيبتها النفسية؛ لأنه اتضح لهم أن علم النفس ذو صلة وثيقة جداً بعلم التاريخ.

والمتواتر عبر التاريخ أن دراسة المؤرخ للجوانب النفسية لأي فرد لها مردودها؛ لأن ذلك سيمكنه من تفسير قدراته العلمية وسلوكه وعلاقاته الشخصية والرسمية مع الآخرين. وهذا دون شك سيساعده على دراسة علم التاريخ والتعمق فيه، وسيجعله بالحقيقة قادراً على إثبات صحة ما يقع تحت يده من معلومات تتعلق بتصرفات الإنسان، وعليه يستطيع المؤرخ أن يفسر بوضوح الأحداث والظواهر التاريخية تفسيراً علمياً مقنعاً.

يقول كل من **عادل حسن غنيم** و **جمال محمود حجر** في كتابهما «منهج البحث التاريخي»: «علم النفس من العلوم المساعدة التي يحتاجها المؤرخ، فدراسة العوامل النفسية والنوازع البشرية ومحاولة التوصل إلى المكونات النفسية لشعب من الشعوب أو جماعة من الناس تساعد ولاشك في فهم كثير من الأحداث التاريخية، كما أنه من الصعب الكتابة عن شخصية تاريخية هامة دون دراسة تركيبته النفسية والعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي أسهمت في تكوين نوازعه ومشاعره، والأسباب الذاتية والعامة التي دفعته إلى اتخاذ قراراته الهامة أو الإقدام على بعض مواقفه، أو اتباع أساليب معينة في سياسته الداخلية والخارجية، وهو ما يسهم دون شك في إيضاح كثير من المواقف والقرارت التي اتسم بها عهده، بغض النظر عن النتائج التي تمخضت عن تلك المواقف أو القرارات».

وخلاصة القول: يجب أن يكون المؤرخ مثقفاً ثقافة عالية، لديه معرفة جيدة بالعلوم المتصلة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بعلم التاريخ؛ لأنها تعينه في جمع مراجعه وفهمها وتمحيصها ونقدها، فعلم النفس يُعتبر بحق من العلوم الضرورية لدراسة علم التاريخ لارتباطه القوي بملكات وعقلية الإنسان الذي يُعتبر العمود الفقري لعلم التاريخ.

ومما لاشك فيه أن علم النفس يساعد المؤرخ على تفسير ظواهر متنوعة في حياة الإنسان، فبواسطته يستطيع أن يحلل عناصر علم التاريخ الظاهرة

والباطنة، وهذا سيقوده إلى رؤية أكثر وضوحاً لكل من منعطفات وامتداد آفاق علم التاريخ. والجدير بالذكر أن علم التاريخ ينفرد من بين العلوم الأخرى بكثرة العلوم العملية التي يلزم المؤرخ أن يلم بها أو على الأقل يكون على علم بها. وهذا يرجع إلى طبيعة علم التاريخ نفسه الذي يخوض في جميع ميادين النشاط الإنساني والمعرفة الإنسانية.

من هنا نستطيع القول: على الباحث في مجال علم التاريخ الذي يريد أن يعمل بحوثاً متكاملة فيه أن يبذل كل ما في وسعه ليتزود في معرفة العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ، وفي مقدمتها علم النفس. وعليه سيتيسر له الكشف عن الحقائق الضرورية التي يجب أن يستخدمها في بحثه التاريخي.

ويقول كل من **عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر** في كتابهما المذكور آنفاً: «ويقصد بالتفسير النفسي للتاريخ أن يكون لمشاعر الزعماء أو الجماعات أو الشعوب ردود فعلها النفسية التي تترك آثارها على حركة التاريخ. ويضرب المؤرخون أمثلة عديدة على أهمية التفسير النفسي للتاريخ. منها تلك العصبية الجاهلية، وحملات المسيحيين لتخليص قبر المسيح في فلسطين من أيدي المسلمين كما يعتقدون، والآثار الكبيرة التي تركها سقوط القسطنطينية عام (١٤٥٣ ميلادية) على الممالك الأوربية بشكل خاص، وإقدام اسرائيل على إحراق المسجد الأقصى أو انتهاك حرمته، إلى غير ذلك من الأمثلة».

علاقة علم المنطق بعلم التاريخ الإسلامي:

يرى المؤرخون أن علم المنطق موضوع مهم جداً للباحثين في مجال علم التاريخ؛ لأن له علاقة وثيقة في كل من تنظيم التفكير وعرض ونقد الحجج الاستدلالية. كما أن هناك أيضاً علاقة قوية بين علم النفس وعلم المنطق، بل في الحقيقة يصنف علم المنطق امتداداً لعلم النفس الذي يُعتبر من العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ. والمتواتر لدى المؤرخين في المعمورة أن علم المنطق يؤهل

المؤرخ أن يقيم المفردات العلمية التي يمكن أن يستعملها لإقناع الجمهور. إذن نستطيع القول: إن علم المنطق هو العلم الذي يمد الباحثين بالأدوات والطرق التي تمكنهم من تحليل وتفسير نتائجهم التاريخية.

ويعرض **فؤاد حسن زكريا** باختصار في كتابه «المنطق وفلسفة العلوم» مكانة علم المنطق في طريقة التعبير المنطقي عن وجهة النظر، فيقول: «أما المنطق فإنه ينظر إلى المحتوى النفسي نظرة انتقائية وتقديرية. أما أنه ينظر إلى ذلك المحتوى نظرة انتقائية، فذلك لأنه لا يستبقي من الفعل الذهني إلا ما يسمو منه إلى أعلى مستويات العقل. وما كان القصد منه بلوغ الحقيقة. وهكذا كان المنطق لا يتخذ له موضوعاً إلا من الأحكام الجادة الواعية، التي تهدف إلى مطابقة الواقع، والاستدلال ينبغي أن يخلو من كل نية للخداع، وألا يكون له هدف سوى الإقناع، وبينما يكتفي علم النفس بالوصف والربط فإن المنطق يقوّم، ويميز الحكم أو الاستدلال الصحيح أو الصائب من الباطل أو المخطىء».

إذا كان المؤرخ يدرس بصدق وأمانة التجربة الإنسانية أو جانباً منها على كوكب الأرض، فإنه يحتاج إلى وسيلة علمية يستطيع بواسطتها أن يقنع القارىء بأهمية هذه الدراسة، لذا لابد له من استخدام علم المنطق الذي يحقق له ذلك بسهولة ويُسر. إن المؤرخ الناجح يمكنه عرض الظواهر والأحداث التاريخية التي توصل إليها بطريقة منطقية مقنعة للجمهور؛ لأن المؤرخ حقيقة ليس فقط مسجلاً لأحداث الماضي، ولكنه صاحب الإنسان في حاضره ومستقبله. والجدير بالذكر أن كلاً من جمع المادة التاريخية وتسجيلها وترتيبها يحتاج إلى استعمال علم المنطق وأدواته الرمزية لكي يكتمل البناء التاريخي الذي يسعى المؤرخ اللبيب إلى تحقيقه. على كل حال يجب عدم المغالاة في الاعتماد على علم المنطق وحده؛ لأن علم المنطق ليس إلا وسيلة تساعد المؤرخ في معرفة كل من البناء العلمي لعلم التاريخ ومكانته بين العلوم

الأخرى، ومن دون شك فإن علم المنطق يؤهل المؤرخ أن يفسر بعض الحقائق التاريخية بطريقة منتظمة رائعة.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه «التاريخ والمؤرخون»: «يجب أن يتصف المؤرخ بالأمانة والصدق وحُسن استخدام النص، واستخراج كل ما فيه من الحقائق والمعاني، وعدم تحميل النصوص فوق مادتها، وتجنب الاعتماد على الفروض وبناء الأحكام عليها، أو استخراج أحكام تقوم على المنطق وحده ثم اعتبارها حقائق ثم البناء عليها، وتركيب استنتاجات وآراء تقوم في قاعدتها على غير أساس. ولابد بعد ذلك من التزام المنطق، فإن التاريخ علم بلا قواعد، ولكنه علم يحكمه المنطق، فكل حادثة لها أسبابها وعللها ولها نتائجها، وهذه كلها لابد من مراعاة التماسك الموضوعي لا الشكلي بينها... ويجمع أصحاب التاريخ اليوم على أن التاريخ علم بمنهجه وفن بأسلوب عرضه، فنحن نتبع في دراسته كل أصول البحث العلمي وقواعده في جمع الأصول واستخراج المادة العلمية السليمة منها، ثم يبدأ الجانب الفني أو التأملي أو المنطقي، وهو طريقة العرض والصياغة».

وخلاصة القول: إن التاريخ الطويل لعلم المنطق لدى علماء العرب والمسلمين والذي يزيد امتداده عن ألف سنة لعب دوراً هاماً جداً في علم التاريخ؛ لأن مؤرخي العرب والمسلمين اهتموا قبل كل شيء بتقييم الإنسان في كل من مسيرته وتفاعله مع الأحداث التاريخية بطريقة منطقية، بهذا استطاعوا وبكل جدارة عقد قران بين علم التاريخ وعلم المنطق. كما أجبروا كلاً من الأحداث والظواهر التاريخية للإطار المنطقي؛ لكي يتمكن الباحثون في مجال علم التاريخ من فهم الحقائق التاريخية عن كثب وبوضوح تام.

والحقيقة التي يجب إبرازها أن مؤرخي العرب والمسلمين مدينون لفلاسفة اليونان في حقل علم المنطق، ولكن ليس بالطريقة التي يعرضها المستشرقون: «إن علم المنطق بلغ مع أرسطو الكمال والختام». أي إن فلاسفة العرب

والمسلمين لم يعملوا إلا مجرد ترجمة وشرح علم المنطق اليوناني. وهذا في الحقيقة فيه إجحاف بحق فلاسفة العرب والمسلمين، الذين مدوا المؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في العالم أجمع بأدواتهم المنطقية، ليستعملوها في حقل علم التاريخ منذ وقت مبكر جداً.

علاقة علم الجيولوجيا بعلم التاريخ:

إن الانسان منذ بدأ حياته على وجه البسيطة وهو يدرس ويتمعن في الأرض وتطوراتها، لذا استفاد المؤرخون مثلاً بنتائج فحص عظام الحيوانات التي حصلوا عليها في تحديد أزمنتها التي تُعتبر مادة تاريخية هامة، أما علماء العرب والمسلمين فقد اتجهوا إلى التأمل والاستنتاج والبحث عن الحقائق التاريخية بالطرق العلمية الصحيحة، لذا نجحوا نجاحاً باهراً في تفسير وتحليل الظواهر الطبيعية، ودراسة الصخور والجبال والمعادن التي بدورها أفادتهم في بحوثهم التاريخية، والمعروف أن علم الجيولوجيا علم نظري وعملي في نفس الوقت، فالباحث في هذا المجال لا يكتفي أبداً في معرفة تاريخ الأرض بل لابد له أن يعرف أيضاً مصادر المعادن.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «يستعين الآثاريون بالبقايا الجيولوجية لعظام الحيوانات القديمة المتحجرة منها وغير المتحجرة، والطبقات الصخرية في تحديد أزمان الآلات والأدوات الحجرية من عصور ما قبل التاريخ، ولا سيما ما يسمى بالعصور الحجرية مثل العصر الحجري القديم الذي يقع زمنه الدهر الجيولوجي المسمى (بلايستوسين) وهو آخر العصور الجيولوجية قبل نحو مليون عام، ومع قصر هذا العصر الجيولوجي بالمقارنة مع الدهور الجيولوجية التي سبقته والمتناهية في أطوالها، يبدو أن أنواعاً وفصائل حيوانية ونباتية عاشت فيه ولكن انقرض بعضها وعاش بعضها في النصف الأول من ذلك العصر والبعض الآخر في

النصف الثاني، فاستخدمت بقايا هذه المواد العضوية التي يعثر عليها في الطبقات المختلفة من الأدوات الحجرية وسائل مهمة لتعين أزمانها بأزمان تلك البقايا الجيولوجية».

ومن دراسة علماء العرب والمسلمين المفصلة لخواص علوم الأرض، استطاعوا وبجدارة أن يعللوا كثيراً من الظواهر الجيولوجية، مثل الزلازل والبراكين والمد والجزر وتكوين الجبال والوديان والسيول والأنهار والجداول والمعادن والصخور وغيرها، ولاشك أن هذه الظواهر الجيولوجية كانت عوناً كبيراً للباحثين في ميدان علم التاريخ؛ لأنها تعطي فكرة واضحة عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي والتربوي لشعوب تلك المناطق، وعليه دوّن علماء العرب والمسلمين خبراتهم في هذا المجال لتكون رصيداً للتابعين لهم، وتكون أيضاً مادة تاريخية دسمة وضرورية لإثراء علم التاريخ، الذي في أمس الحاجة لمثل هذه المعلومات العلمية الراقية.

يقول **فاروق صنع الله العمري** في كتابه «تاريخ علوم الأرض»: «أما تاريخ تفسير الإنسان للظواهر الجيولوجية حوله، فنعتقد أنه يعود إلى تاريخ الإنسان القديم أيضاً، فالمعتقد أنه حاول أن يفسر بعض تلك الظواهر وخاصة أن قسماً من تلك الظواهر كانت مرعبة ومدمرة كالفيضانات والزلازل، وقد لاحظ علماء الآثار أن بعض هياكل الإنسان القديم كانت معها بعض أصداف الحيوانات البحرية، ويعلل هؤلاء العلماء بأنه ربما كان الإنسان القديم يعتقد أن لهذه الأصداف قوة سحرية تشفي المرض».

لقد تخلل دراسات العلماء الأوائل لعلوم الأرض بعض الخرافات والشعوذة والأساطير، لكن علماء العرب والمسلمين حاربوا هذه الخزعبلات وأرسوا دعائم البحث العلمي، وذلك بتفسيرهم لبعض نظريات علوم الأرض تفسيراً علمياً، لذا استطاعوا أن يستغلوا دراساتهم التحليلية لبعض الأفكار الجيولوجية التي حصلوا عليها من أعمالهم الميدانية ليس فقط في حقل علم التاريخ، ولكن أيضاً في

معرفة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية لبعض الشعوب القديمة، لذا تمكن علماء العرب والمسلمين من بلورة وتطوير كل من علم الجيولوجيا وعلم التاريخ.

يقول **عدنان النقاش** في كتابه «الجيولوجيا عند العرب» (الموسوعة الصغيرة): «أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى جمود في العلوم بصورة عامة وفي الجيولوجيا بصورة خاصة لقرون عديدة في أوربا، عندئذ حمل العلماء العرب مشعل العلم في وقت كانت فيه أوربا غارقة في ظلمات الجهل،فكانت الجيولوجيا عند العرب تعتمد على التأمل والملاحظة والتفسير للظواهر الطبيعية، بحيث إن العلوم الجيولوجية الحديثة تبدو وكأنها امتداد منهجي للعلوم الجيولوجية العربية .. والمقصود بالعرب هنا أولئك الذين ضمتهم الإمبراطورية العربية والوطن العربي الذي امتد يوماً من مشارف الصين شرقاً إلى مشارف فرنسا غرباً.. والعلماء العرب هم كل من نشأ في تلك البلاد التي اعتنقت الإسلام وتكلم اللغة العربية وكتب وألف بها».

وخلاصة القول: ومن جهْل وغطرسة علماء الغرب أنهم يدّعون كذباً أن مادة علوم الأرض تُعتبر جديدة على شخصية العربي البدوي الذي يقضي حياته متنقلاً بالصحراء باحثاً عن الكلأ والماء، لذا فإنهم يعتقدون بأن الحضارة الغربية المعاصرة هي التي طورت علوم الأرض.. نسي علماء الغرب أن الإنسان العربي بشخصيته البدوية عرف عبر التاريخ بمحاولاته للتعرف على أنواع الصخور والجبال وما تحتويه الأرض من مياه جارية أو غائرة ومعادن، وأن للعربي البدوي شهرة مرموقة بتجواله في مناكب الأرض باحثاً عن الرزق لكي يعيش بكرامة وأنفة، وهذه الصفة النبيلة تكاد تكون غريزة في نفسه لازمته مدى الحياة، وهي التي قادته بالنهاية إلى معرفة الظواهر الطبيعية التي تُعتبر مادة هامة للباحثين في مجال علم التاريخ.

كما أن العربي المسلم كان يعي تماماً أن علوم الأرض تشترك مع علم التاريخ في دراسة الماضي وربطها بالحاضر وهذا يتضح من قول ف. هرنشوا في كتابه «علم التاريخ» (ترجمة عبد الحميد العبادي): «إن علم التاريخ ليس علم تجربة واختيار، ولكنه علم نقد وتحقيق، وإن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به علم الجيولوجيا، فكل من الجيولوجي والمؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفاته؛ لكي يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضي والحاضر على السواء، ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار الأول إلى أن يفسر العامل البشري الإرادي الانفعالي، حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية».

ويظهر للقارىء مما تقدم عظمة ثقافة العرب والمسلمين في علم الجيولوجيا، فهم الذين ضربوا بأسهمهم في شتى مجالات المعرفة، وخلفوا لنا تراثاً عظيماً في كل من علوم الأرض وعلم التاريخ نفخر به. أرجو من الله جل وعلا أن يكون الاستعراض السريع عن علاقة علم الجيولوجيا بعلم التاريخ منشطاً لهمم شباب أمتنا العربية والإسلامية؛ لكي يكرِّسوا جهودهم في دراسة هذه العلاقة الهامة».

علاقة علم الفلك بعلم التاريخ:

المتواتر أن لعلماء العرب والمسلمين اليد الطولى في تقدم علم الفلك. فقد نقلوا عن كل من علماء اليونان والهند والفرس بعض الأفكار الأولية في ميدان علم الفلك. وصححوا ما ثبت خطؤه بواسطة المراصد التي أقيمت لهذا الغرض في معظم أرجاء الدولة الإسلامية، كما توسعوا في مباحث الفلك وزادوا عليه ما شاهدوه أثناء رصدهم لحركات الكواكب والنجوم. والحق أن علماء العرب والمسلمين قد عملوا أيضاً إضافات جوهرية أدهشت وأعجبت علماء الغرب المنصفين، الذين اعترفوا بدور علماء العرب والمسلمين في هذا المجال الحيوي.

ومن المعروف أن هناك اعتقاداً سائداً لدى الأوائل أن لحركات الكواكب

والنجوم علاقة قوية بالحوادث التاريخية من حيث الحظ والمستقبل والحرب والسلم، مما جعل المؤرخين الأوائل يدرسون بكل دقة وعناية هذه التخمينات الفاسدة، إضافة إلى تشجيعهم الباحثين في ميدان علم التاريخ أن يدرسوها، علماً بأن هذه التكهنات الباطلة حرمها الدين الإسلامي؛ لأنها عبارة عن خزعبلات خطيرة.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «لقد أخذ المؤرخون المسلمون الأوائل من الفلكيين حساباتهم المتعلقة بتاريخ الدنيا وتاريخ ما قبل الإسلام. لكنهم لم يستخدموا هذه المواد بشكل أساسي في مؤلفاتهم بل أشاروا إلى بعض الصدف التي تحققت فيها النبوءات، وهذا ما أشار إليه علي ابن يحيى المنجم عندما قال: «كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتاباً من كتب الملاحم، فوقفت على موضع من الكتاب فيه أن الخليفة العاشر يقتل في مجلسه، فتوقفت عن قراءته وقطعته، فقال لي: مالك قد وقفت؟ قلت: خير، قال: لابد والله من أن تقرأه. فقرأته وحدت عن ذكر الخليفة، فقال المتوكل: ليت شعري من هذا الشقي».

حاول مؤرخو العرب والمسلمين في القرون الوسطى أن يقللوا من أهمية وتأثير دور الظواهر الفلكية على الباحثين في حقل علم التاريخ؛ لأن بعضهم يعتبرون هذه الخرافات من تراث الجاهلية العقيم. كما أن معظم مؤرخي العرب والمسلمين يعتقدون في النهاية أن جهد الإنسان والعلم في الغالب ينتصران على الأفكار التاريخية البالية التي تعتمد على العوامل الفلكية.

لقد دوّن علماء العرب والمسلمين في مصنفاتهم الفلكية بعض المعارف التاريخية التي قد بنيت على حقائق علمية واضحة، مثل استخدام الأزياج في تحديد تاريخ وقت الحوادث التاريخية. لذا تعتبر مصنفات علماء العرب والمسلمين في حقل علم الفلك من المصادر العلمية التي رجع إليها الباحث التاريخي. وذلك لأنها تشتمل على مادة تاريخية هامة يمكن بواسطتها تفسير تاريخ وأوقات بعض

الأحداث والظواهر التاريخية التي كانت تحير المؤرخ اللبيب.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «وعلاقة التاريخ بالنجوم والفلك نجمت عن امتداد المنجمين أنفسهم على ميدان التاريخ. وإخوان الصفا يجعلون مما ينبغي على المنجم معرفته: (معرفة التواريخ والبدايات والملل والدول وتبدل الأشخاص على سير الملك والحروب والفتن والحوادث والكائنات من الغلاء والرخص والخصب والجذب والوباء والأمراض.. وحوادث الأيام..إلخ).. فكأنما عمل المنجم هو التاريخ، ولكن المستنتج من الأفلاك لا المروي من قبل الناس. وهكذا فإن كتب النجوم كانت تحوي بعض المادة التاريخية ... مما يجعل القفز بينها وبين التاريخ والنقل عنها إليه ميسور للمؤرخين ومغرياً لهم. وهكذا فقد كان من شأن انتشار علم الفلك والنجوم أن استخدمت الأزياج والعلوم الفلكية في تاريخ الأحداث وتحديد أوقاتها وأحياناً في تعليلها. ولعل من أقدم الأمثلة على هذا التأثير (العلمي) في التاريخ كتاب : «الآثار الباقية» لأبي ريحان البيروني (٤٤٠ - ١٠٤٨م). على أننا نجد الكثير من التحديدات الفلكية للأحداث بالأبراج وغيرها لدى حمزة الأصفهاني في تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، واليعقوبي، والمسعودي المطهر المقدسي وابن حوقل، وابن ميسر في مصر، وابن القلانسي في دمشق، وابن العديم في حلب».

وخلاصة القول: لقد ثبت أن لعلم التاريخ علاقة وثيقة بعلم الفلك منذ الأزل. وهذا يتضح من أن معظم كتب علم الفلك تحتوي على مادة علمية دسمة في مجال علم التاريخ. وكما هو معروف فإن التعاون بين كل من علماء علم التاريخ وعلماء علم الفلك كان قائماً لأن المعرفة الإنسانية متشابهة ومشتركة، ولاشك أن المؤرخين في بعض الأحيان يحتاجون إلى حقائق فلكية لكي يفسروا بعض الحوادث التاريخية، وكذلك لتوسيع آفاق مداركهم وليحصل أيضاً التكامل في بحوثهم التاريخية.

والمشهور بين العلماء في المعمورة أن علم الفلك نما وترعرع بصحبة علم التاريخ منذ أمد طويل جداً، وهما في الحقيقة شديدا الصلة ببعض؛ لأن علم الفلك يعرض تصوراً كاملاً للمؤرخ حول الاعتقادات القديمة التي بدورها تساعده على تحليل الحوادث التاريخية، كما أن المؤرخين الأوائل تمكنوا من استيعاب كثير من الحقائق التاريخية من خلال دراستهم لعلم الفلك الذي أسهم في تطويره علماء العرب والمسلمين إسهاماً رائعاً.

وأضاف **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر قائلاً: «ولقد أخذ بعض المؤرخين عن أصحاب النجوم والفلكيين حساباتهم المتعلقة بتاريخ الدنيا وتاريخ الأمم فيما قبل الإسلام، يقول حمزة الأصفهاني: (ولم أجد لتواريخ سني (القبط) ذكراً في الكتب إلا في الزيجة) وبهذه الوسيلة توفر لهم مقدار من المادة التاريخية الهامة.. وكثيراً ما كانت معرفة النجوم والطوالع سبيلاً إلى تعليل بعض الأحداث. كمقاتل بعض الناس أو خلود بعض المدن أو ميلها إلى الفتن أو تفسير بعض الكوارث الطبيعية من فيضانات وأوبئة ومجاعات».

لقد اهتم مؤرخو العرب والمسلمين بدراسة علم الفلك ليس فقط للاستفادة منه في بحوثهم التاريخية، ولكن أيضاً لمعرفة أنواع النجوم الثابتة والمتحركة؛ لأن علماء العرب والمسلمين بوجه عام كانوا مغرمين بدراسة الأجرام السماوية ومراقبة النجوم ومعرفة أسمائها وأماكنها ومنازل القمر التي قسموها إلى ثمانية وعشرين قسماً. والجدير بالذكر أن بعض مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل يعتقدون أن بعض النجوم والكواكب تؤثر بشكل أو بآخر على الفكر التاريخي، وتعين الباحث في علم التاريخ على فهم وتحليل بعض الحوادث والظواهر التاريخية، وعليه لا عجب إذا اعتبر علم الفلك من العلوم المساعدة لعلم التاريخ.

صفات المؤرخ المسلم

تميز المؤرخ المسلم بكل من رأيه وبصيرته السديدين. فهو لا يصدق تماماً كل مصادره، بل يفحص مصادره التاريخية جيداً وبطريقة استقرائية مرموقة قبل أن يقبلها، ليستخدمها في بحوثه التاريخية، واشتهر المؤرخ المسلم بعمله الجاد الذي يقوم به بصمت وتفان، مبتعداً عن كسب الألقاب البراقة والظهور؛ لأن مثل هذه الأمور تخلق عنده الغرور وتجنبه الحقيقة، فالمؤرخ الناجح هو الشخص الذي يقوم على أكتافه ازدهار الحضارة الإنسانية. والمتواتر أن مؤرخي العرب والمسلمين يمتلكون ظاهرة الفراسة الطبيعية، حيث تفوقوا بمعرفتهم بسهولة الغث والسمين من المعارف التاريخية التي تصل إليهم لدراستها والاستفادة منها في بحوثهم التاريخية.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وينبغي على المؤرخ أن يكون أميناً شجاعاً مخلصاً، فلا يكذب ولا ينتحل ولا ينافق أصحاب الجاه والسلطان، ولا يخفي الواقع والحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان، والتي قد لا ترضيه أو لا ترضي قومه. إذ إنه لا رقيب عليه غير ضميره، ومن يخرج على ذلك لا يمكن أن يعد مؤرخاً. ولا ريب أن الكشف عن عيوب الماضي وأخطائه تفيد إلى حد كبير في السعي إلى تجنب عوامل الخطأ في الحاضر، وعدم الكشف عنها يعد تضليلاً وبُعداً عن التبصر والمصلحة الوطنية، وقد يكون إخفاء الحقيقة التاريخية عملاً وطنياً في بعض الظروف، كما تفعل كل الأمم، ولكن لابد من ظهور الحقيقة بعد زوال الضرورة التي دعت إلى إخفائها، حتى يمكن استخلاص أكبر قسط من الحقيقة التاريخية، ولا يمكن أن يكتب التاريخ بغير التوصل إلى الوقائع الصحيحة».

لقد كان مؤرخو العرب والمسلمين أصحاب ثقافة واسعة، حيث تمكنوا وبجدارة من قراءة آثار المؤرخين الكبار. لقد حازوا رضاء المثقفين في

المعمورة؛ لأنهم تجنبوا التحيز وتفهموا الجلد والمثابرة. كما حاولوا أن يلتمسوا الأعذار لبعض الزلات البسيطة التي ارتكبها المؤرخون الأوائل، لذا ذاع صيتهم بين معاصريهم والتابعين لهم لمقدرتهم النادرة على نقل الأخبار التاريخية بكل ثبات وأناة، وبفراستهم العلمية استطاعوا بكل بساطة التمييز بين المقبول والمفروض من الوثائق التاريخية، وعليه استمروا في البحث والتنقيب والاستقصاء للكشف عن أسرار التطور الاجتماعي، واستنتاج الأطر الضرورية التي تحكم الحركة التاريخية بمذاهبها المتنوعة.

ويذكر العلاّمة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته: أن المؤرخ اللبيب يجب أن يتصف بالصفات الآتية:

١ ـ الصدق والإحساس والتسامح وإنكار الذات وبُعد النظر.

٢ ـ الإلمام بنواميس العمران.

٣ ـ تجنب المغالات والمغالطات للوصول إلى الحقيقة، بل يلزم أن يمحص الأخبار التاريخية تمحيصاً دقيقاً ويتحقق من صحتها وصدقها.

٤ ـ تعليل الحوادث التاريخية لمعرفة كيفية حدوثها وأسباب وقوعها.

٥ ـ العلم بأسباب قيام الدول والقائمين عليها وأسباب ازدهارها وانحلالها.

٦ ـ الخبرة العلمية في عادات ومذاهب الأمم قديمها وحاضرها.

٧ ـ البُعد عن مزج علم التاريخ بأخبار الكهانة والمنجمين؛ لأنه علم عزيز المذهب وجم الفائدة.

وخلاصة القول: يجب أن يكون لدى المؤرخ المسلم إلمام جيد في العلوم الشرعية لئلا يقع في المهالك، وأن يكون أيضاً مصحوباً بالورع والتقوى وحسن الخيال والتصور، والحقيقة أن المؤرخ صاحب الخيال والقدرة الأدبية هو شريك أصيل في صراع الإنسان مع بيئته من الناحية الطبيعية والزمانية والاجتماعية.

والجدير ذكره أن المؤرخ المسلم يولي الظواهر والأحداث التاريخية جل عنايته. وهذا يظهر واضحاً عن طريق دراسته النقدية الموضوعية التي توحي بالشجاعة والأمانة والصدق. والمعروف أن علم التاريخ لا يحتوي على قوانين مجردة مثل العلوم الرياضية، لذا لابد أن يتحرر المؤرخ من الميل والهوى، ويعتمد على الاستدلال النزيه الذي يُعتبر الأساس في صياغة علم التاريخ صياغة علمية.

والحقيقة المعروفة أن الإنسان بطبيعته ميّال إلى معرفة ماضيه معرفة جيدة، وذلك ليفهم كيف كان أجداده يعيشون؟ وما هي أساليب حياتهم اليومية؟ لذا كان مؤرخو العرب والمسلمين يهتمون بتقديم وجبة تاريخية دسمة؛ لأنهم يعتقدون أن الإنسان المتحضر لابد له أن يعرف ماضيه وحاضره ويخطط لمستقبله. والذي يجهل ماضيه يكون شخصاً متخلفاً مبتوراً لا جذور له، لذا يرون أن المؤرخ يحتاج إلى المواهب الفطرية والمكتسبة لكي يكون المؤرخَ الناجحَ الحسنَ الظنِّ والنزيه الذي لديه القدرة العلمية على القياس والاستخلاص.

وأضاف **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «أنه من الضروري أن يكون المؤرخ ـ كغيره من رجال العلم ـ ذا عقل واع مرتب منظم؛ لكي يستطيع أن يميز بجلاء بين الحوادث، وينسق أنواع الحقائق، ويفيد بها في الموضع المناسب؛ ولكي يكون قادراً على تحديد العلاقة بين حوادث التاريخ في الزمان والمكان، ويربط بينها على اتساق وتوافق، وبغير ذلك تختلط الحوادث أمام المؤرخ وتضطرب تفصيلاتها ويعجز عن الربط بينها، ويفقد صفته كمؤرخ. ومن الصفات الأساسية للمؤرخ عدم التحيز، فعليه أن يحرر نفسه بقدر المستطاع من الميال أو الإعجاب أو الكراهية لعصر خاص أو لناحية تاريخية معينة، وهو بمثابة القاضي الذي لا يكون حكمه أقرب إلى العدل إلا بقدر المستوى الذي يصل إليه من البُعد عن التحيز والهوى».

صانعو التاريخ الإسلامي

بادىء ذي بدء إن عظماء الرجال والنساء هم الذين أشادوا صرح علم التاريخ الإسلامي وجعلوه في حركة دائمة، والحق أن لهم الريادة ليس فقط في العلوم الإنسانية مثل كل من علم التاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد والآثار وغيرها، لكن أيضاً في العلوم الأساسية والتطبيقية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فلو أخذنا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه البحر الزاخر بالمعرفة الشاملة، لرأينا أن جميع صفات الزعامة تتوفر في شخصيته البارزة التي تميزت فيها عناصر الوراثة والقوة الفردية.

وصدق **عباس محمود العقاد** عندما قال في كتابه «عبقرية عمر»: وكفى من كلمات عمر الدالة عليه، أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير؛ لأن (الذي لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه)، وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول: (أعقل الناس أعذرهم للناس) وأنه هو القائل: (احترسوا من الناس بسوء الظن) وهو القائل مع ذاك: (أظهروا لنا حسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر) و (أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه)، وكما وصف نفسه: (ليس بالخب ولكن الخب لا يخدعه)، ويوافق في هذه الأقوال بين سهر الحاكم الذي لا ينبغي أن تخفى عليه خافية، وبين عدل القاضي الذي لا ينبغي أن يحكم بغير بينة ظاهرة.

إذا عدنا لصانعي التاريخ الإسلامي وجدناهم رجالاً جمعوا بين صفات رجال الدولة البارزين والتفوق العلمي، لذا فإن الكثير من الملوك والأمراء والوزراء في العصور الإسلامية خدموا علم التاريخ خدمة جليلة، حيث جعلوه سمة من سمات الثقافة الراقية للمتعلمين في جماهيرهم الغفيرة. وعليه صار علم التاريخ الإسلامي من المقررات المنهجية الهامة جداً التي تدرس لجميع طبقات مجتماعتهم. والجدير بالذكر أن الباحث في علم التاريخ الإسلامي يلزمه معرفة

كل من تاريخ الفرس والرومان معرفة جيدة؛ لكي يتمكن من إبراز مكانة وفضل الدين الإسلامي الحنيف على جميع الأديان، من هنا يتضح أن علم التاريخ الإسلامي يساعد على الحفاظ على كل من جوهر العقيدة الإسلامية والحماس لصانعي التاريخ الإسلامي.

ينقل **فرانز روزنثال** في كتابه «علم التاريخ عند المسلمين» ـ ترجمة صالح أحمد العلي ـ: «إن دراسة التاريخ كانت خير وسيلة لتعليم الحكمة السياسية لمن يؤمل أن يكونوا حكاماً في المستقبل.. ولم يكن دور التاريخ في تربية الأمراء أمراً عفوياً، بل كان وثيق الصلة بالتقاليد الشرقية التي تحث على التاريخ كمصدر رئيس للإلهام السياسي للملوك والحكام، وقد ظل هذا التقليد حياً في الإسلام.. لقد ذكر برنامج الحياة اليومية للخليفة معاوية: يدخل بيته فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل ليلة».

بعظماء الرجال والنساء احتل علم التاريخ مكانه المناسب في مجموعة المعارف البشرية، فالمؤرخ المسلم يهتم تماماً في التأمل التاريخي؛ لأنه يكتب لجماهير الناس ويبحث نتائج تاريخية مفيدة والتي تعود على كل من طالب العلم والباحث في المنفعة، لذا أخذ على عاتقه تقدير واحترام علم التاريخ الإسلامي كعلم؛ لأنه معادل في القيمة العلوم الأخرى وإن اختلف عنها في الشكل. والجدير بالذكرأن المؤرخ الناجح هو الشخص الذي يركز على تعليل النزعات الحضارية، ويبتعد كل البعد عن دعم سياسة معينة، بل يجب عليه أن يكون محايداً صريحاً في تفسيره وتحليله للأحداث التاريخية، ويكتب التاريخ للتاريخ، ويعترف بفضل صانعي التاريخ من الزعماء والمفكرين.

يقول كل من **عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر** في كتابهما آنف الذكر: «ولا شك أن لعظماء الرجال والنساء دورهم في صنع التاريخ، لكن هذا الدور ليس دوراً مجرداً غير متأثر بما حوله من أوضاع داخلية وخارجية، وإنما هو محصلة لتفاعل عدد من المؤثرات تجسدت في النهاية في دور هذا الزعيم أو ذاك. وهناك شروط لابد من توفرها لظهور الزعيم وحسن أدائه لدوره:

أولاً: أن يكون العصر الذي يظهر فيه الزعيم عصراً يسمح بتفوق بعض الأفراد على غيرهم.

ثانياً: أن تتجمع ظروف موضوعية مختلفة ـ داخلية وخارجية ـ تهيئ الجو المناسب لبروز الزعيم.

ثالثاً: أن يتمكن فرد معين من تفهم الظروف واستشعار آمال أمته وآلامها، وليس ضرورياً أن تكون صفات القائد صفات إيجابية أو خلقية، فبينما كان عدل عمر بن الخطاب هو أبرز صفاته، فإن همجية تيمور لنك ودكتاتورية هتلر وروح تشرشل الاستعمارية كانت كلها عوامل أساسية في بروزهم، لكن تلك الصفات السلبية كانت في النهاية نفس العوامل التي قضت على مطامعهم ومخططاتهم».

وخلاصة القول: إن الأعمال الجليلة التي قام بها عظماء الرجال والنساء في الحقيقة هي التي عملت علم التاريخ الإسلامي قابلاً للتطور والرقي وفي حركة مستمرة في هذا الاتجاه الحيوي، ولا يخفى على القارىء أن الظروف الموضوعية لها أهمية عظيمة في نبوغ الزعيم أو المفكر، لذا من الضروري جداً أن تتوفر في صانعي التاريخ صفات القيادة لكي يحققوا النتائج المرجوة، فمثلاً الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عادلاً رحيماً لمن يستحق ذلك ولكنه أيضاً كان خشناً قاسياً على العصاة والظلمة، لذا وصلت الأمة الإسلامية في عهده أوج عزها وتقدمها.

عُرِفَ أيضاً الخليفة العباسي المأمون بثقافته الواسعة واحترامه للعلماء، لـذا وصل بيت الحكمة في بغداد في عهده الـذي أسسـه الخليفـة العباسـي هـارون الرشيد إلى مكانة علمية نادرة، حيث صار طلاب العلم والباحثون يأتون مـن كل صوب وحدب للبحث والدراسة فيه؛ لأنه كان يضـم كـلاً مـن جهـابذة الفكـر في العلـوم ومكتبـة مليئـة بكنـوز الكتـب في شـتى المجـالات العلميـة والتاريخية والأدبية، من هنا استطاع صانعو التاريخ الإسلامي أن يكتبوا تاريخ الأمة الإسلامية شاملاً للحياة العقائدية والأخلاقية والعلمية والأدبية.

obeikandl.com

طبيعة علم التاريخ الإسلامي

طبيعة علم التاريخ الإسلامي أن لايكون ماثلاً أمام الباحث، لذا يحتاج في دراسته إلى التعمق في دراسة العلوم المساعدة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر مخلفات الإنسان وآثاره المتنوعة، وذلك ليتمكن من التحري والبحث واستخلاص الحقائق التاريخية وتنظيمها وتفسيرها وعرضها بالطريقة العلمية التي توحي بالحركة والحياة، فالجيولوجي يدرس أوضاع الأرض الماضية ليعرف أسرار الظواهر الجيولوجية الحاضرة، لذلك يعمل المؤرخ بجد واجتهاد في جمع حقائق وأحداث الماضي، ليقف على ما يحدث في الحاضر؛ لأن الحاضر يعتبر بحق وليد الماضي، كما أن المستقبل وليد الحاضر، ومن ليس له ماض ليس له حاضر ولا مستقبل.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «من البديهي أن المؤرخ لا يستطيع أن يعيد أو يستعيد الحوادث الماضية التي زالت وانمحت و لم تترك لها إلا أصداء في البقايا التاريخية من آثار ووثائق مدونة ـ كما في العلوم الرياضية ـ بل إنه يبحث فيما خلفه الإنسان لمعرفة أحداث الماضي. ولعل أحسن ما يوصف به التاريخ بصفته علماً أنه من العلوم الوثائقية؛ أي العلوم التي تعتمد على الوثائق التي خلفها الماضي سواء كانت بقايا مادية أم مدونات تاريخية، وهذه هي مصادره ومادته الأولى، ويهدف من وراء ذلك إلى فهم تطور الإنسان والقوانين التي تتحكم في هذا التطور، وبعبارة أخرى معرفة الإنسان.. فإن الحادثة التاريخية مهما بلغت من البساطة إنما تقع بفعل سلسلة متشابكة من الأسباب والعلل بخلاف الطبيعية التي بحث فيها علماء الطبيعة، حيث تكون أسبابها والعلاقات ما بينها سهلة الاكتشاف إذا ما قيست بالحوادث التي يبحث فيها المؤرخ فإنها أفعال تصدر من فاعلين يتصفون بالفكر والقصد والحوافز المعقدة».

يهتم المؤرخ بالحوادث البشرية؛ لأنها محصلة ما يطرأ على كوكب الأرض من مجموعة تجارب ومعطيات لها اتصال مباشر أو غير مباشر في حياة الإنسان، والحقيقة أن الحياة بطبيعتها مستمرة في التغير، وهذا التغير يعتمد عليه المؤرخ اعتماداً كبيراً في دراساته التاريخية؛ لأنه فعلاً المادة التاريخية الدسمة التي تمده بالحيثيات التاريخية التي لا يستطيع أن يستغني عنها. كما أنه معروف لدى المؤرخين في المعمورة أن مكونات علم التاريخ ثلاثة: الإنسان والزمان والمكان، وبإرادة الله سبحانه وتعالى الإنسان هو المسيطر على الزمان والمكان، لذا يكون الإنسان هو المحرك لعلم التاريخ الذي يحتوي على تجاربه التي لا تزال مستمرة بحلقاتها المتصلة، إذن نستطيع القول: إن علم التاريخ هو الحافظ لجذور الأمة.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «فإذا كان التاريخ في حقيقته هو الحوادث، وكانت الحوادث هي التغيرات، والتغيرات وليدة الزمان أو سير الزمان، انتهينا إلى أن التاريخ هو الزمان، ويكون ميدان اهتمام المؤرخ على هذا هو دراسة كل تغير طرأ على الكون والأرض وكان له تأثير على حياة البشر، ثم دراسة كل تغير طرأ على حياة البشر أنفسهم، مهما كان هذا التغير صغيراً أو غير ظاهر الأهمية. فالحقيقة أنه لا توجد حوادث صغيرة وأخرى كبيرة؛ لأن الحوادث الكبيرة إنما هي تجمع حوادث صغيرة بعضها إلى بعض في نطاق مكاني وزماني ضيق. وكما أن السيل الجارف ينشأ من تجمع ذرات صغيرة من البخار، فإن وقوع حرب عالمية مدمرة يكون في الغالب نتيجة تجمع مشاكل بشرية وسياسية وتراكمها في دولة من الدول أو أكثر، وفي نفس الوقت تتراكم الخصومات والحزازات وتصطدم المصالح والأهواء مرة بعد أخرى. وكل حادثة صغيرة تخلف وراءها في النفوس أثراً يتراكم مع مرور الزمن، فيؤدي هذا التجمع والتراكم إلى الاحتكاك ثم الانفجار، وكذلك الحال بالنسبة لمن نسميهم علماء الرجال، فهم في ذاتهم لا قيمة لهم إلا بالرجال الذين ساروا وراءهم وأيدوهم، وما قيمة نابليون بدون جنوده،

وما قيمة المتنبي بدون قرائه؟».

وخلاصة القول: من طبيعة علم التاريخ أنه يسجل الهزات التاريخية بكل أمانة وصدق ودقة، لذا صار المؤرخ يبذل جهداً كبيراً ليقف على أسبابها البعيدة وأسرارها الدفينة؛ لأنه بمثابة الحكم، وأيضاً يعرف تمام المعرفة أن تطور ونشوء وارتقاء الحياة يحتاج إلى تفسير وتحليل لمثل هذه الألغاز الخطيرة، والثابت لدى المؤرخين أن الماضي في امتداد مستمر ومتواصل للحاضر والمستقبل. إذن يمكن القول: إن علم التاريخ هو علم نمو وتطور الإنسان عبر التاريخ بلا توقف على مدى الزمان الذي يعتبر وعاءه، وعليه فإن طبيعة علم التاريخ الإسلامي ليس سرد الأحداث والظواهر التاريخية كما يتصوره البعض، بل مهمته الرئيسية ربط العلل بالمعللات والأسباب بالمسببات؛ لأن علم التاريخ الإسلامي صرح منطقي يستند على الحقائق التاريخية الخالية من مزالق الخيال.

من هنا يجب أن نشحذ إمكانيات أبنائنا الفكرية ليستفيدوا من تاريخ أمتنا العظيم، ولكي يقفوا موقف الواثقين من أنفسهم ليصيروا سداً منيعاً أمام الصراع القائم بين المسلمين والغربيين (أعداء الإسلام)، وبهذا سيتمكنون بحول الله وقوته من الحفاظ على قيمنا الحضارية من التفتت والذوبان والهرطقة، ومن المشهور أن من طبيعة علم التاريخ الإسلامي أنه يمتاز بأنه محصلة ثمرات العقول الإسلامية التي عرفت الثقافة الواسعة والخبرة الوطيدة، وعليه يجب في عصر التقنية أن يرتبط شبابنا بتاريخهم العريق ارتباطاً وثيقاً لكي يحموه من عبث المستشرقين وهجوم المهاجمين واعتداء المعتدين.

التركيب للتاريخ الإسلامي

الباحث في علم التاريخ هو الإنسان الذي يجمع الحقائق التاريخية من مصادرها المختلفة بعد التأكد من صحتها؛ لأن كثيراً من المؤرخين في العالم يتباينون في الدقة والرواية، كما يشترط على المؤرخ أن لا يتسرع في الحكم على المعلومات التاريخية التي أمامه، بل يجب أن يتحلى بالصبر والجلد والأناة وسعة الصدر؛ لكي يتمكن من الإحاطة بجميع دقائق المادة التاريخية المتيسرة قيد الدراسة.

ويبدأ المؤرخ في التركيب التاريخي (أي البناء التاريخي) وهو التنسيق والربط بين أجزاء البحث المتنوعة وصياغتها بطريقة عملية تضمن وحدة المادة وتخليصها من الشوائب التي لحقت بها في الماضي والحاضر، كما يلزمه أن يكتب أفكاره وتفسيراته بأسلوب سهل ممتع، متجنباً كلاً من الإيجاز الشديد الذي يخل بالمعنى، والشرود والإيهام بالمعرفة؛ لأن علم التاريخ له قواعده وطرائق بحثه وأغراضه المتعددة، وله أيضاً مكانته العلمية العالية بين حقول المعرفة، وبدونه لا يمكن فهم أحداث الحاضر والتخطيط للمستقبل.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «يقع على المؤرخ واجب ثقيل في استخلاص تاريخ مفهوم ومسبب لإظهار آرائه وشخصيته، من حيث بيان ما يرتئيه من تفسيرها وتقديم ما يرتئيه من أسباب وتفسيرات يتوصل إليها في تحليل الأحداث والوقائع التي جمعها ونقدها، وينبغي عليه أن يعرض مادته بأسلوب متناسق واضح يستند إلى التسلسل المنطقي في العرض وترتيب مادة بحثه ترتيباً فنياً وبأسلوب لغوي واضح سلس بعيد عن التعقيد في التعبير، ففي بحوث الاختصاصي يسير المؤلف في عرض وجهات النظر المختلفة عن الموضوع وإجلاء الغوامض والإكثار من التفسيرات والتعليلات. أما الكتب التي تؤلف لجمهور القراء

فالهدف المتوخى منها بث الثقافة التاريخية العامة بين الجمهور، فليس من الضروري أن يحمل بالنصوص وجهات النظر المختلفة المتعارضة، كما لا يلزم الإكثار من الهوامش وتحاشي التعابير والمصطلحات الفنية المعقدة بل توخي السلاسة وسهولة التعبير والبساطة في العرض كلما أمكن ذلك».

تمكن المؤرخ المسلم بجدارة أن يبتعد عن مزالق المبالغات التاريخية التي وقع فيها الكثير من المؤرخين في العالم، حيث ركز على دراسة فعاليات الأمة الإسلامية بأكملها، مستخدماً بذكاء وحكمة طريقة الربط بين العناصر المختلفة والتسلسل المنطقي متجنباً طريقة سرد الروايات والأحداث التاريخية. وكما حاول بنجاح أن يبرز شخصيته فيما كتب بطريقة علمية رائعة، فلم يظهر فيها مبالغة أو إعجاب بنفسه وإنجازاته، بل ترك الحكم لغيره، وحرص المؤرخ المسلم أن لايدون الأفكار المتباينة بدون تفسير وتعليل، بل عمل اللازم وذلك بترجيح الصحيح منها، وبهذا استطاع تحقيق البناء التاريخي المطلوب (المشهور باسم التركيب التاريخي)، والحق أن علم التاريخ ليس من العلوم المضبوطة مثل العلوم الرياضية التي تخضع لقوانين واضحة ومضبوطة لا تقبل الاجتهاد والتأويل، على الرغم من ذلك تمكن المؤرخ المسلم أن يكشف حقائق تاريخية خطيرة وأن يعلق عليها بوضوح وأمانة وتجرد ويجعلها خاضعة لمنهج البحث التاريخي.

ولخص كل من **عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر** في كتابهما آنف الذكر، حول المنهج في كتابة التاريخ: «الأسس التي يدور حولها التركيب التاريخي بالنقاط التالية:

أ ـ تصنيف الحقائق التاريخية التي أمكن التوصل إليها، بحيث تصبح كل مجموعة من تلك الحقائق مرتبطة بمرحلة تاريخية من مراحل البحث.

ب ـ عقد المقارنات بين حقائق كل مجموعة على حدة ومحاولة الربط بينهما، وإبراز مضمونها وإيضاح ما أضافته إلى الحقائق المعروفة.

جـ ـ سد الثغرات التي تظهر للباحث عند قيامه بعملية البناء التاريخي.

د ـ تحقيق الوحدة المطلوبة للبحث ـ سواء كان تقسيم الخطة زمنياً أو موضوعياً ـ بالربط بين الظواهر سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية.

هـ ـ أن تكون الاتجاهات الرئيسة للموضوع واضحة أمام المؤرخ خلال قيامه بعملية البناء التاريخي، وأن يكون قادراً على وضع المادة التاريخية في خدمة تلك الاتجاهات وليس إغراق نفسه وموضوعه في خضم المادة التي جمعها».

وخلاصة القول: لقد أثبت المؤرخ المسلم بوضوح تام ضرورة دراسة علم التاريخ دراسة نقدية، لاعتقاده أنها الطريق السوي لمعرفة العلاقة بين البيئة والنشاطات العمرانية التي يقوم بها الإنسان. كما تواتر أيضاً أنه طور في التركيب التاريخي ليكون منهجاً يستند على الاختبار والتحقيق والنقد العلمي فلم يخضعه لآرائه الشخصية بل على العكس حاول أن يكون نبراسه الصدق والأمانة العادلة، وهكذا استطاع المؤرخ المسلم أن يتبع في جميع دراساته منهجاً خالياً من الأهواء الشخصية؛ لأن علم التاريخ هو الوسيلة الموثوق بها لتثقيف الشعوب المتحضرة.

تفوق المؤرخ المسلم في طريقة بنائه لمادة التاريخ على غيره من المؤرخين في المعمورة؛ لأنه يتحقق من بنائه الأحداث التاريخية التي أمامه للدراسة وينظمها تنظيماً واضحاً ويقدم لها الشروح والتحليلات العلمية المقنعة. والجدير بالذكر أن المؤرخين المسلمين مستمرون في الخلاف في الرأي مع بعض المؤرخين في العالم وهذا الاختلاف بين المؤرخين في الرأي والتحليل يثري علم التاريخ ويعطيه الحركة والحياة، بدونه سيسيطر على علم التاريخ الجمود والركود، وعليه يتضح للقارئ تميز المؤرخين المسلمين في مجال التركيب التاريخي الذي يُعتبر القاعدة الأساسية للربط بين العناصر المختلفة لمادة علم التاريخ.

ضرورة دراسة علم التاريخ

المعروف أن علم التاريخ عبارة عن مجموعة من الحقائق والظواهر المنتظمة المتشابهة التي تصدر على صيغة تعليمات أو قوانين بواسطتها يستطيع المؤرخ المدرب أن يتنبأ حوادث أو ظواهر مماثلة، لذا يجب على المؤرخ أن يعتمد على المصادر المكتوبة والروايات الشفوية الموثوق بها؛ لأنها ستساعده على فهم تطور الجنس البشري عبر التاريخ، والثابت أن مؤرخي العرب والمسلمين هم الذين وضعوا الأسس الراسخة لدراسة علم التاريخ؛ لأنهم اهتموا والتزموا في التعرف على تجارب الأمم التي لها باع في نشأة الكتابة التاريخية النزيهة، وعليه تعتبر دراسة علم التاريخ ضرورية؛ لأنه جزء لا يتجزأ من الثقافة الإنسانية وبدونه يصعب فهم واستيعاب الفعاليات والتطورات الثقافية الأخرى.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «وإنما نحن ندرس التاريخ لذاته، ندرسه لنعرف ماضينا وما مر بنا من التجارب، وكيف وصلنا إلى ما نحن فيه، فتزداد ثقافتنا بهذا العلم غنى، وتتسع آفاق فكرنا وإحساسنا، ويزداد الفكر خصوبة وعمقاً والإحساس شفافية، وعندما ندرس تاريخ أمتنا تزداد معرفتنا بها وبتجاربها.. ونحن لا ندرس التاريخ لنتعظ به، بل لكي يزداد إحساسنا بأخوة البشر وبقيمة الإسلام والعلم، وبما يعود علينا وعلى غيرنا من الخير إذا نحن وجهنا جهودنا نحو الأعمال المثمرة البناءة وعملنا على تقوية شجرة الحرية؛ لأن التجربة علمتنا أن الحرية لب الحياة، وهي للجماعات الإنسانية كالهواء والضوء والماء للنبات. وبدون حرية فلا حضارة ولا تقدم ولا نهوض».

ولقد بلور علم التاريخ بطريقة واضحة وجلية للعلماء المتميزين في العالم أن إخوانهم الذين بذلوا جهداً عظيماً، لكي يبتكروا أسلحة الدمار الشامل، كان الأحرى بهم أن يتجهوا إلى اكتشاف المعدات المتقدمة من حيث التقنية التي تفيد الإنسان في حياته اليومية بدلاً من تقديم نظرياتهم العلمية لصنع القنابل بأنواعها الفتاكة. والمتواتر أن منهج علم التاريخ يفرض على المؤرخ أن

ينتقي مادته التاريخية، ويقدمها بصورة متزنة وبأسلوب يمتاز بالسهولة والصراحة، وعليه لا عجب أن يتناول علم التاريخ موضوعات في غاية الحساسية كالاكتشافات العلمية المتقدمة التي قصد بها دمار الجنس البشري. كما اشتهر مؤرخو العرب والمسلمين في تبنيهم مثل هذه الأحداث التاريخية والكتابة عنها بحياد ودقة، ولذا صارت مؤلفاتهم تمثل مزيجاً راقياً من الخطة والمادة العلمية. كل ذلك لأنهم يعتقدون أن علم التاريخ هو ذاكرة الشعوب والتي تتناقلها الأجيال، فإن أسماء كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب ومحمد بن موسى الخوارزمي وابن سينا وابن البيطار والجلدكي وغيرهم من جهابذة الفكر، تعتبر أسماء معاصرة نتحدث عنهم كل يوم؛ لأننا نعي تاريخ أمتنا المشرق.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «إن التاريخ هو نهر الحياة فإن هذا النهر متصل السير قبلنا وفي زماننا وبعد زماننا، وإذا قلنا: إننا عندما نكتب التاريخ فمعنى ذلك أننا نسجل التجربة الإنسانية، فإن هذه التجربة ما زالت سائرة متصلة الحلقات، والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل؛ لأننا إذا دققنا النظر تبينا لا شيء في الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن. وفي علم الطبيعة يقولون: إن المادة لا تفنى، أما في علم التاريخ، فنحن نقول: لا شيء يزول زوالاً تاماً إنما هي الأشياء نفسها تأخذ مع الأيام صوراً شتى».

من الصعب جداً أن يصل المؤرخ إلى الحقيقة الصادقة. ولكن بجده واجتهاده ودراسته العلوم المساعدة لعلم التاريخ، يمكنه أن يصل بحول الله جل وعلا إلى الحقيقة الصحيحة نسبياً، لذا يجب على المؤرخ اللبيب أن يركز في دراسته على الحقيقة الكامنة حول تطور الأمم من حيث رفعتها وما حل بها من هبوط وتدهور وانحلال، معتمداً بذلك على مختلف الأصول والمصادر على أن يكون أهمها تركة الإنسان وآثاره العلمية الموجودة في المكتبات والمتاحف في جميع أنحاء العالم.

يقول **حسن عثمان** في كتابه آنف الذكر: «وينبغي علينا أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول إلى الحقيقة المطلقة، إذ إن هذا الأمر غير مستطاع لعوامل مختلفة مثل ضياع الأدلة وانطماس الآثار، ومثل الأغراض والمصالح. ومن ذا الذي يمكنه أن يعرف الحقيقة المطلقة في الماضي والحاضر. وهل يمكن للإنسان أن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة بالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبياً، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح بالمعنى الصحيح في حدود إمكانه، وحينما يعكف المؤرخ على دراسة التاريخ لن يجد الوقائع أو الحوادث ماثلة أمامه، وعليه عندئذ أن يتجه إلى دراسة وفحص مخلفات الإنسان وآثاره من كتابات ونقوش ومصنوعات ومنشآت، وآثار الإنسان كلها تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ، وأحياناً قد يعثر المؤرخ على وثائق مزيفة سواء أكان ذلك قصد الدعاية أم الدفاع عن فكرة معينة أم من أجل الشهرة أم للإيجار والكسب، وعلى ذلك ينبغي أن تدرس آثار الإنسان ومخلفاته بروح النقد والحذر».

وخلاصة القول: لقد تفنن ونجح مؤرخو العرب والمسلمين في جمع كل من الروايات التاريخية وآثار الإنسان حيث اتبعوا منهج التدقيق والانتقاء، وذلك باستخدام موضوع الإسناد الذي يعتبر عصب علم التاريخ، كما فهم مؤرخو العرب والمسلمين فهماً جيداً تداخل وتشابك العلوم المختلفة بعضها ببعض، وأنه لايمكن أبداً دراسة أي علم من العلوم دراسة علمية متكاملة بمعزل عن العلوم الأخرى، وعليه يكون علم التاريخ هو العلم الوحيد الذي يجمع بين العلوم المختلفة، وهو أيضاً العلم الذي يقدم دراسة علمية لسلوك الإنسان في الماضي، وبذلك يمكن العثور على العناصر المشتركة بين مشاكل الحاضر والمستقبل التي يمكن حلها حل الذكي البارع.

كيف يجب أن يدرس علم التاريخ الإسلامي

من المعروف أن على أستاذ علم التاريخ واجبات كثيرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن يجعل محاضراته ملتقى علمياً للتحليل والمقارنة التاريخية، وأن ينتج طلاب علم في هذا الميدان الحيوي لديهم القابلية على كل من الاستقراء والتحليل والمقارنة والمناقشة الهادئة؛ لأن علم التاريخ مشهور بسعة مساحته وعمق أغواره. كما يجب على أستاذ علم التاريخ أن يركز على عوامل رقي الحضارات الإنسانية وأسباب سقوطها أيضاً، وفوق كل هذا كله يجب أن يتصف أستاذ علم التاريخ بحُسن الخلق والاستقامة والتدين والعفة والمرونة والمروءة، وأن يحث طلابه ألا يقتصروا على قراءة الموضوعات التاريخية الصرفة، بل من المستحسن أن يتعدوها إلى دراسة البحوث شديدة الصلة بعلم التاريخ لكي يكونوا طلاباً متميزين بآفاق واسعة في هذا المجال.

يقول **عماد الدين خليل** في كتابه «في التاريخ الإسلامي فصول في المنهج والتحليل»: «وما من شك في أن أبسط مفاهيم التعليم التاريخي هي تخريج مثقفين معتزين بتاريخهم وأمتهم وحضارتهم، شاعرين في قرارة نفوسهم بالاستعلاء الثقافي والحضاري على بقية الأمم والتواريخ والحضارات، لاسيما وأن الشرق عامة والأمة الإسلامية خاصة تمثل في حضارتها لقاءات معطاءة بين السماء والأرض، وتنبثق في معظم الأحيان عن مصادر عليا للمعرفة والتوجيه لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وأن هذه النقطة بالذات هي ما يجب أن توضح دائماً في عملية التعليم لكي نغرس في كيان المثقفين مشاعر الاستعلاء، وإبعاد أي شعور بالنقص تجاه الحضارات الأخرى، وقطع الطريق على أية محاولة لتكريس التبعية الفكرية لدى هؤلاء.. إن هناك طلاباً يمتلكون معرفة فطرية للمعاني الكامنة وراء الأحداث، وأن على الأستاذ أن ينمي هذه القدرة؛ لأنه بهذا سوف يتيح للشرق أن يشهد في يوم من الأيام دراسات

تاريخية عملاقة كتلك التي قدمها توينبي واشنبغلر وغيرهما. كما أنه بهذا يؤكد على القيم الروحية في فهم التاريخ ويحطم الجدران المادية الضيقة التي تخنق الدراسات التاريخية وتمنع من النفاد إلى الأعماق».

وللأستاذ بوجه عام مكانة مرموقة في أحضان الحضارة العربية والإسلامية؛ لأنه هو العمود الفقري لتطوير العملية التربوية في العالم الإسلامي، فمثلاً أستاذ علم التاريخ هو وحده الذي يستطيع بعقله الراجح وحكمته أن ينظر للأحداث التاريخية نظرة أفقية بكل إيجابياتها وسلبياتها، وهو أيضاً الذي لديه القدرة العلمية أن يقدم علم التاريخ لطلابه بطريقة مملوءة بالحيوية المتدفقة. وقد خص الله تبارك وتعالى دور الأستاذ العظيم في كتابه القرآن الكريم عندما قال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمنوا مِنكمْ والذينَ أُوتُوا العِلْمَ درجاتٍ﴾ [سورة المجادلة/ آية ١١]. كما ميّز الله جل وعلا الأستاذ العالم على غيره من البشر درجات حينما قال: ﴿قُلْ هل يَسْتَوي الذينَ يَعلَمونَ والذينَ لا يَعْلَمونَ﴾ [سورة الزمر/ آية ٩] ومن هذا التوجيه الجليل قام العرب والمسلمون بما يلزم حيال الأساتذة العلماء، حيث جعلوا لهم مكانة خاصة رفيعة تليق في مكانتهم العلمية. ويكفي الأستاذ فخراً واعتزازاً أن صفوة الخلق رسول الله ﷺ قال: «إنما بُعثت معلماً»، وصدق الخليفة الراشد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه عندما قال ـ وهو يتكلم مع أبي الأسود الدؤلي ـ: «الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك».

يقول كل من **محمد جاسم العبيدي ومالك الدليمي** في بحث لهما قدماه في ندوة مركز التراث العلمي العربي بجامعة بغداد تحت عنوان: «مكانة الأستاذ في التراث العربي الإسلامي» وذلك سنة (١٤٠٨ هجرية): «لقد كانت الخصائص والخصال العظيمة في تراث أمة العرب مناراً مشعاً للأمم الأخرى، سواء أكان في مجال الاهتمام بالعلم أو لنظره أو تطبيقه، وكان العامل المشترك في النقل والتعليم هو المعلم الأستاذ العالم الشيخ إلى مختلف

التسميات التي نالها القائم بالعلم وبالتعليم، وقد أعطى المجتمع العربي الإسلامي مكانة متميزة للأستاذ، وخاصة بعد ظهور الإسلام في بلاد العرب وما عقبه من دور الأستاذ في نشر الرسالة والتأكد في طلب العلم وإجلال العلماء، فقد تنافس بعض الخلفاء في أن يكون مجلسهم من المعلمين والمؤدبين والأساتذة والفقهاء وأهل الفنون. كان الأستاذ أبو معاوية الضرير يأكل مع الخليفة هارون الرشيد طعاماً على مائدة واحدة، فلما قام الأستاذ أبو معاوية لغسل يديه، نهض هارون الرشد وأخذ الإبريقة، وصب الماء على يدي أبي معاوية الضرير ـ وهو لا يدري ـ ثم قال له: أتدري من يصب الماء على يديك؟! قال: لا، فقال الرشيد: أنا، قال الضرير:أنت يا أمير المؤمنين! قال: نعم إجلالاً للعلم والعلماء».

وخلاصة القول: إن آراء أساتذة علم التاريخ الإسلامي صارت حججاً لا تقرع، حيث كانوا من أعمق المؤرخين في العالم تفهماً لروح علم التاريخ وأبعدهم تصوراً للأحداث التاريخية، لذا جاءت بحوثهم التاريخية غنية بالمصطلحات عميقة في تحليلها لمشاكل المجتمعات الإسلامية يومذاك، وعليه فقد تركوا آثاراً خالدة تشكل مصدراً رائعاً للراغبين في البحث في مجال علم التاريخ، لذا نستطيع القول: إن أساتذة علم التاريخ في العالم الإسلامي قد دربوا أبناءهم الطلاب على البحث العلمي التاريخي المرموق الذي فيه مكنوهم من تقديم خدمة جليلة لأمتهم التي هي الأخرى في أمس حاجة إلى مجهوداتهم العلمية المكتسبة.

لقد حارب أساتذة علم التاريخ في العالم الإسلامي بكل قوة يمتلكونها أمام طلابهم النظرة العقيمة إلى علم التاريخ كعلم جامد مسطح وإحداثة عمودية بالية أكل عليها الدهر وشرب. والحقيقة أن علم التاريخ هو بحق الضوء الكاشف عن كل من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والعلمية والدينية أي هو المعول لنشاط البشر على كوكب الأرض.

تطور علم التاريخ الإسلامي

المؤرخون في الماضي كانوا يبحثون بدقة متناهية فيما خلفه الإنسان ليعرفوا وقائع الماضي دون ربطها بالحاضر؛ لكي يفهموا حقيقة الحاضر وماذا سيتم في المستقبل؟، ولذا لم يبلغ علم التاريخ التطور المرجو، ولكن عندما انتشر الإسلام في معظم بقاع العالم ظهر مؤرخو العرب والمسلمين الذين استطاعوا بكل جدارة أن ينقلوا كلاً من خبراتهم وخبرات الأوائل إلى الأجيال اللاحقة؛ لأن تجاربهم ومهاراتهم العقلية والمادية زادت زيادة ملحوظة، حيث تمكنوا من استخدام العلوم المساعدة بكل ذكاء وبصيرة؛ لكي يطلعوا على علم التاريخ عن قرب، وعليه أسسوا المنهج العلمي لدراسة علم التاريخ، وذلك بربط الأحداث التاريخية بالحاضر والتخطيط بوضوح وحكمة للمستقبل المشرق.

يقول كل من **عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر** في كتابهما آنف الذكر: «فلقد كانت الكتابة التاريخية في أول أمرها عملاً أدبياً يتناول أحداث الماضي، لكن هذا العمل على أهميته كان يتم، وهنا كانت المرحلة الثانية من تطور الكتابة التاريخية التي تهتم وتركز على دراسة هذه القوى التي تعمل وتؤثر في حياة الناس، ومن آثار تلك المرحلة ظهور المذاهب التاريخية المعروفة التي أرجع أصحابها حركة التاريخ إلى عوامل روحية أو ذاتية أو طبيعية أو اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية أو غيرها».

لقد أصر مؤرخو الغرب بغطرستهم المعهودة على أن علم التاريخ يجب أن يقتصر على أعمالهم الغثة؛ لأن في اعتقادهم أن ما عملوه فيه الكفاية، وهذا التصرف بالحقيقة هو آفة الفكر الغربي الفاسد؛ لأنهم بهذا التصرف لا يعطون فرصة للآخرين ليس فقط مؤرخي العرب والمسلمين ولكن مؤرخي كل من الهنود والفرس وغيرهم، علماً أن إنتاجهم في مجال علم التاريخ ضحل ومملوء بالكذب والمبالغة والنفاق والتملق، بينما علم التاريخ عند العرب

والمسلمين احتل مكاناً مرموقاً بين العلوم الأخرى لأنه أقرب إلى قلوب الناس. وكما أنه نما وترعرع في بيئة علم، بل نبت في تربة علم الحديث الذي أسس على الإسناد والضبط الصادقين اللذين يعتبران أساس قيمة البحث العلمي في ميدان علم التاريخ. ولقد اشتهر مؤرخو العرب والمسلمين في تقويمهم السليم للحوادث التاريخية تقويماً علمياً دقيقاً مبنياً على البحث والتنقيب والاستقصاء عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة لمثل هذه الحقائق التاريخية، فإليهم يرجع الفضل في تقنين البحث العلمي وإبراز الإبداعات العقلية العربية والمسلمة دون الإسراف والمبالغة والخروج عن القصد والمألوف، وعليه صاغوا علم التاريخ صياغة علمية تخضع للتجربة الصحيحة وترفض الخرافة.

يقول **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «كل تاريخ لتطور علم التاريخ نقرؤه في كتاب غربي لابد أن يكون بالضرورة ناقصاً، إذ إن هذه الكتب تسقط من الحساب ـ كلياً أو إلى حد كبير ـ الدور الضخم الذي قام به المؤرخون المسلمون في تطوير هذا العلم، وما نقول هذا مجاملة منا للسابقين من مؤرخينا بل نقوله لأنه حق، وإذا كان من الممكن الجدل في قيمة ما وصل إليه علماء العرب في الطبيعة والكيمياء بالنسبة لحالة هذين العلمين اليوم، فإنه لا جدال في أن ما وصل إليه الغربيون إلى آواخر القرن التاسع عشر على الأقل.. بدأ مؤرخو المسلمين على طريقة المحدثين المدققين الذين لا يروون خبراً إلا اعتماداً على سند متين موصول من رواة ذوي صدق وأمانة، وساروا بعد ذلك على مناهج علمية جديرة بكل تقدير ولهم ـ نتيجة لهذا ـ فضل كبير جداً في تطوير هذا العلم، ولكن مؤرخي الغرب ساروا على مبدأ أن العلم كله غربي».

وخلاصة القول: لقد استطاع مؤرخو العرب والمسلمين أن يسجلوا المآثر التاريخية الجبارة ـ التي وصلت إليهم عن طريق مؤرخي العرب والمسلمين الأوائل ـ بطريقة علمية تمتاز بالبساطة والسهولة والوضوح والسلاسة والعمق، وبهذا جعلوا علم التاريخ صرحاً علمياً هائلاً لكل من العلوم البحتة والإنسانية؛

لأنهم في الحقيقة بذلوا جهوداً عظيمة في قراءة مختارات من آثار المؤرخين الأوائل والمعاصرين لهم بطريقة تمتاز بالإخلاص والصبر والمثابرة، وعليه نستطيع القول: إن مؤرخي العرب والمسلمين قد خلقوا مدرسة علمية صحيحة تعتمد على المقارنة والتحليل الدقيقين مع المحافظة على التقاليد التاريخية.

لاشك أن المنهج الذي تبناه مؤرخو العرب والمسلمين ساعدهم على تأصيل معلوماتهم التاريخية تأصيلاً منيعاً وصائباً، حيث استنبطوا معنى الحوادث التاريخية وخلدوا وحددوا معالمها الرئيسة. بهذا ابتعدوا عن العشوائية والتخبط والخرافة، وأصبح منهجهم يستند على الإسناد والبحث والضبط واستجلاء المعارف والاستدلال الصادق، كل هذا صار لأنهم اعتمدوا على رصيد قيم من التجارب الفكرية والنفسية والعقيدية التي خلفها لهم مؤرخو العرب والمسلمين الأوائل.

الفائدة المجنية من علم التاريخ

لو نظرنا بتمعن لوجدنا أن كثيراً من المشاكل المعاصرة لا نستطيع تفسيرها تفسيراً مقبولاً إلا بالرجوع إلى علم التاريخ؛ لأن علم التاريخ المصدر الوحيد الذي له اتصال قوي بالعصور القديمة والوسيطة والحديثة، وعليه درس مؤرخو العرب والمسلمين بكل اهتمام المعارف التي أسهمت في تكوين المادة التاريخية، والتي ساعدت أيضاً بدورها في تقدم علم التاريخ، لذا تمكن المؤرخ المسلم أن يجني بجدارة الفائدة التاريخية القائمة على الاستدلال العقلي الذي يُعتبر عصب التفكير العلمي الصحيح.

يقول **غازي حسين عناية** في كتابه «مناهج البحث العلمي في الإسلام»: «لقد بلور الإسلام أسلوب الاستدلال العقلي، وبناه على دلالات المنطق في الاستنباط والتأمل النظري لظواهر الوجود المتعدد، وصولاً إلى حقائق المعرفة المبتغاة كدلالة أن الصنعة تدل على الصانع وأن البعرة تدل على البعير، وأن الدخان يدل على النار، وأيضاً كدلالة أن الأسباب تؤدي إلى النتائج وأن الكل أكبر من الجزء...إلخ، فبالتأمل الفطري لظواهر الكون من مخلوقات وسماوات وأراض، وجن، وإنس، وماء، وهواء، وجماد، ونبات، استدل العقل الإنساني فطرياً على وجود الله الخالق لها».

لقد جمع الكثير من الفقهاء وأئمة المسلمين بين الفقه والتاريخ، حيث إنهم يعتقدون أن علم التاريخ الوسيلة المتميزة لفهم الفقه والعلوم الشرعية على الوجه الأكمل، كما أنهم عرفوا أن علم التاريخ مصدر قوي لتثقيف الناس، خاصة بعد ظهور المذاهب المتنوعة التي تشحذ الفكر البشري والتي دفعته إلى التحري والإبداع، اللذين يساعدان على تفسير بعض الحوادث التاريخية بطريقة علمية مقنعة، بهذا استطاع مؤرخو العرب والمسلمين من رسم صورة واضحة للإنسان الذي نبراسه العقيدة الإسلامية السمحة، ومرجعه كتب كل

من السيرة النبوية والفقه والحديث والطبقات والتراجم والبلدان والفتوح والخطط وغيرها من الكتب التي تهتم بالجانب الإسلامي.

يقول **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه «مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية»: «ارتبطت الكتابة منذ بدايتها في صدر الإسلام بالعلوم الدينية ارتباطاً وثيقاً، فكان المؤرخون الأولون يكتبون في السيرة النبوية وفي المغازي وفي نسب قريش وفي الطبقات وفي التراجم لرجال العلم والفقه والحديث، ومما لاشك فيه أن القرآن الكريم أكد أمثلة الشعوب الماضية البائدة لما تنطوي عليه هذه الأمثلة من عبر دينية ومواعظ خلقية. كما جاء القرآن بنظرة عالمية إلى التاريخ ممثلة في تتابع النبوات، وكان لهذه النظرة أثرها العميق في اهتمام كتاب العرب بدراسة تاريخ الرسل والأنبياء. يضاف إلى ذلك أن القرآن نص على أن سيرة الرسول مثل للمسلمين يقتدون بها، وكان لهذا التأكيد أثره في عناية كتاب العرب بدراسة السيرة النبوية ودراسة حياة الرسول. وقد سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول باسم المغازي».

شهد المؤرخون في العالم بصراحة لمؤرخي العرب والمسلمين بكل من النزاهة والحيطة والمقدرة على الاستقراء في ميدان علم التاريخ، بهذا فهم الذين أرسوا قواعده المبنية على حقائق تاريخية هامة، لذا يعرفون تمام المعرفة أن علم التاريخ هو المصدر الفريد المعبر عن جميع أوجه نشاطات الإنسان المتنوعة والظروف التي لابستها. كما أنه كان واضحاً لهم أيضاً أن علم التاريخ يمتلك صيغة لها أبعاد كثيرة، وعليه أصبح علم التاريخ الإسلامي موضوع دراسة علمية راقية بالمعنى الدقيق.

يقول **عماد الدين خليل** في كتابه آنف الذكر: «فإذا ما انتقلنا إلى التاريخ الإسلامي بالذات هو تاريخنا، والزاوية التي يجب أن ننطلق منها لفهم تاريخ العلم.. التاريخ الإسلامي الذي يتميز عن غيره من التواريخ بمعالم وسمات أصيلة تهبه شخصية مستقلة، والذي يعبر أكثر من غيره عن حصيلة

أعظم لقاء بين السماء والأرض، وعن طموح الإنسان المؤمن لإعادة سير التاريخ في مجراه الطبيعي وانطلاقه نحو هدفه المرسوم في الكون.. التاريخ الذي يصور لنا الجهود العملاقة التي بذلها المسلمون لتشكيل مصير العالم وفق منهج متفرد يجمع في إطار واحد، الظاهر والباطن، والحضور والغياب، والطبيعة وما وراء الطبيعة، والمادة والروح.. ويفتح أمام الإنسان الطريق لتقديم أقصى ما عنده من طاقات في بناء حضارة غير متأرجحة ولا مزورة».

وخلاصة القول: إن التفكير التاريخي ناتج عن تفاعل الإنسان مع بيئته، ولقد ثبت بما لا يقبل الشك أن البيئة لها أثر عظيم في صناعة علم التاريخ، فعلم التاريخ الإسلامي أشرق بصوره المتعددة النافعة؛ لأنه نما وترعرع في أحضان الشريعة الإسلامية، فكما أن كتاب الله القرآن الكريم عرض أمثلة تاريخية كثيرة مشحونة بالعظاة والحوادث التي استفاد منها المؤرخون، والتي لا يستغنون عنها بأي حال من الأحوال. ومن فوائد علم التاريخ أنه يعطي فكرة واضحة حول كل من أسباب ونتائج الغارات والحروب ومقومات الحضارة الإنسانية، لذا يكون الباحث في مجال علم التاريخ لديه المعرفة العميقة لكل من التجارب والخبرات والأدوار التي مر بها الإنسان عبر الزمان، وهذا بحد ذاته يلزمه أن ينقل هذه المعارف القيمة إلى الأجيال القادمة بكل صدق وأمانة.

ركز علماء العرب والمسلمين على دراسة علم التاريخ؛ لأنه يحتل مكانة مرموقة وسط العلوم الإنسانية، ويتضح ذلك الاهتمام من آلاف الكتب التاريخية التي ألفوها والتي تناولت شتى الميادين. كما أنه لم يعرف بوضوح الإصلاح التاريخي الذي يقصد به الإنسان والزمان وما يطرأ على أحوال الإنسان إلا في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

علم التاريخ الإسلامي
مناظرة بين الماضي والحاضر

الرؤية التاريخية تختلف من عصر إلى آخر، فهي في الحقيقة ليست ثابتة كما يظن البعض، بل مستمرة في التغير عبر الزمان، وهذا التغير يعرف لدى المؤرخين بالمناظرة بين الماضي والحاضر، لذا شمخت ونمت أصول علم التاريخ. ومما لاشك فيه أن المؤرخ يستنير من اطلاعه على ماتم في الماضي لكي يستوعب وقائع الحاضر، ومنه يستطيع بجدارة أن يبرز الأخطاء التي وقع فيها الأجداد فيبتعد عنها وينصح معاصريه أن يعملوا المثل. والحقيقة أن المناظرة بين الماضي والحاضر هي التي تقود إلى التخطيط للمستقبل المشرق، ومن دونها سيكون علم التاريخ جامداً وعبارة عن سجل للأحداث التاريخية التي أكل عليها الزمان وشرب. والجدير بالذكر أن مؤرخي العرب والمسلمين تميزوا في تقديم نتائج دراستهم التاريخية المبنية على التقصي لحقائق المعرفة البعيدة كل البعد عن ظواهر العاطفة في التفكير والبحث والصياغة.

ينقل **حسين مؤنس** في كتابه آنف الذكر: «يقول كثير من العلماء: إن كل عصر ينبغي أن يكتب التاريخ من وجهة نظره؛ لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له، يختلف عن تقدير العصر الآخر، وكل عصر كذلك يحاول أن يرى الماضي من خلال اهتماماته والأفكار السائدة فيه، ومن هنا قال كثيرون من المؤرخين: إن التاريخ حوار بين الحاضر والماضي، وهذا في ذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة في الدراسة التاريخية، فإن التاريخ بطبعه ـ كدراسة للإنسان وأعماله ـ تتأثر صورته التي يراها المؤرخ تأثراً واضحاً بالأحوال المادية والمعنوية في الوسط الذي كتبت فيه، وليس في هذا عيب أو مأخذ على التاريخ، فكل العلوم الاجتماعية تخضع لهذا التأثير،

وصورة المتنبي كما يرسمها مؤرخ أدب في القرن الثامن عشر مثلاً تختلف عن صورته كما يرسمها مؤرخ أدب اليوم، وكذلك الحال مع الدولة الأموية مثلاً فإن تصوير الجاحظ لها يختلف تماماً عن تصويرنا نحن لها».

للعرب والمسلمين فضل عظيم في تطوير علم التاريخ وجعله علماً قابلاً لمسايرة الحضارات المختلفة وأقلمتها، فهم الذين طوّروا الفكر الاجتماعي والاقتصادي في الحياة الإسلامية وجعلوه يخضع تماماً لعلم التاريخ. من هنا تمكنوا من التعرف على الأحداث التاريخية التي كانت لهم عظة وعبرة. لقد تميز مؤرخو العرب والمسلمين في تحليلهم الظواهر التاريخية تحليلاً علمياً أدى إلى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر التاريخية والأسس التي قامت عليها الحيثيات التي مرت بها. والحق أن العقيدة الإسلامية ساعدت على إضفاء المميزات الروحية السامية على علم التاريخ الإسلامي، لذا أصبح علم التاريخ عبارة عن مناظرة علمية بين الماضي والحاضر أعانت الأمة الإسلامية على إدراك حقيقتها وحقائق غيرها من الأمم. نستطيع أن نقول الآن: إن علم التاريخ الإسلامي قنديل يضيء لنا منعطفات وخنادق الحاضر والسبيل المستقيم للمستقبل. وعليه يجب أن يدرس المؤرخ علم التاريخ بطريقة مرنة لكي يتسنى له الحصول على الحقيقة الناصعة التي تساعد معاصريه على محاربة الخرافات والأساطير؛ لأن علم التاريخ في طبيعته له لذة عظيمة عند السماع وعبرة عند التفكير.

يقول **حسين مؤنس** في مقالة له تحت عنوان: «ماهية التاريخ ولماذا ندرسه؟» ـ نشرت في مجلة عالم الفكر عام (١٣٩٤ هجرية) ـ: «وبديهي أن أي مؤرخ ذكي يتحرى دائماً أن يكتب ما يكتب من التاريخ على صورة تنفع معاصريه أو تكون ذات قيمة ونفع لهم على الأقل، ومن هنا كانت كتابة سير عظماء الرجال موضوعاً مطلوباً دائماً؛ لأن النفس الإنسانية تميل دائماً إلى معرفة تفاصيل حياة أولئك الرجال، ولهذا فكتب التراجم دائماً كتب ذات

معنى للحاضر، والهدف الرئيس من الحوار التاريخي أو من النظر إلى التاريخ كحوار بين عصرنا والعصور الماضية هو أن نرى أين الخطأ لكي لا نقع فيما وقعوا فيه..ومن هنا يجوز لنا أن نقول: إن الماضي كما يراه جيلنا يختلف عن نفس الماضي كما رآه الجيل السابق لنا، وكما سيراه الجيل الذي سيأتي بعدنا، ومن هنا يصدق القول: بأن للأمة الواحدة أكثر من تاريخ، ولابد ـ لهذا ـ لكل عصر أن يكتب التاريخ من وجهة نظره.. وإذا نحن اعتبرنا التاريخ حواراً بين أجيالنا والأجيال السابقة، فينبغي أن تتسع مائدة الحوار حتى يكون فيها لكل قوم من أهل الأرض مقعد وصوت. وهنا فقط يمكن أن يقال: إننا نستطيع كتابة تاريخ عالمي. أما أن يكون التاريخ العالمي قصة الصراع بين دول أوربا على سيادة العالم فهذا زيف مقصود أو غير مقصود».

وخلاصة القول: إن علم التاريخ الإسلامي مصدر عظيم لتوسيع آفاق المؤرخ المسلم، ويتضح ذلك لتميزه عن غيره من المؤرخين في العالم بسبب كل من: (١) ثقافته الواسعة (٢) قدرته على الاستقلال في التحليل والمقارنة. (٣) إمكانياته الفريدة على تفنيد الأفعال والأحداث التي تحدث على كوكب الأرض. (٤) معرفته العالية بالمعارف التي لها صلة وثيقة بعلم التاريخ. (٥) تنسيقه المعلومات المتنوعة وجعلها مترابطة تتسم بالصدق والأمانة. ومن هنا استطاع المؤرخ المسلم أن يُبرز ويُفسر كل الأحداث والظواهر التاريخية متقمصاً منهج المناظرة بين الماضي والحاضر.

لقد ظهرت مذاهب متعددة في مجال علم التاريخ تفسر كل الأحداث والظواهر التاريخية. ولاشك أن هذه المذاهب شحذت ذهن المؤرخ المسلم ودفعته إلى اكتشاف اتجاهات جديدة في ميدان علم التاريخ تناسب وتعزز موقف معاصريه، ومن هنا تبلورت المناظرة بين الماضي والحاضر وصار لها صداها الفاعل، وبدونها سيصبح علم التاريخ عبارة عن مخزن للأحداث التاريخية القديمة البالية.

علم الأنساب

كان لعلم الأنساب مكانة مرموقة بين القبائل العربية قبل إشراق الدين الإسلامي، وعليه حاول علماء العرب والمسلمين بكل ما يملكون من قوة أن يخففوا من تأثيره ويجعلوا الرابطة الإسلامية تحل محله، وبذلك أوشكوا على النجاح، إلا أنه ظل الشعور نحو القبيلة متأصلاً، حيث تبلور واستمر تفاخر الحكام ورؤساء القبائل بأجدادهم، مما جعل تدوين علم الأنساب يسبق بكثير علم التاريخ، وعليه فقد ظهرت أعداد كثيرة من الكتب القيمة في هذا المجال؛ لأن علماء العرب والمسلمين كانوا يعتقدون أن الكتابة أهم وأخلد ذكراً من الآثار والبنيان والحجارة وغيرها. من هنا أصبح علم الأنساب جزءاً لا يتجزأ من علم التاريخ الذي خدمه علماء العرب والمسلمين خدمة جليلة عبر العصور.

يقول **أحمد أمين** في كتابه «ضحى الاسلام» ـ الجزء الثاني ـ : «عني مؤرخو المسلمين بالأنساب، وذلك أن العرب كانت بحكم طبيعتها تعيش قبائل، وتعد القبيلة وحدة كوحدة الأسرة، وتمحى فيها شخصية الفرد إلى حد كبير، فالمحمدة يأتيها الفرد محمدة للقبيلة، والعار يرتكبه الفرد عار للقبيلة، والشاعر يشعر للقبيلة، والخطيب يخطب للقبيلة، والوفود تفد باسم القبيلة، وهكذا ملكت عليهم القبيلة أنفسهم وتفكيرهم، فلما جاء الإسلام أراد أن يحل الأخوة الدينية محل الرابطة القبلية، ووجدت الرابطة الدينية فعلاً وكانت قوية شديدة، ولكن لم تمح العصبية القبلية، فظل المسلمون ينحازون في القتال إلى قبائل، ولما دوّن عمر بن الخطاب ديوان الخراج بدأ بالعباس عم النبي ﷺ ثم ببني هاشم ثم بمن بعدهم طبقة بعد طبقة، فراعى الاعتبار الديني والاعتبار القبلي معاً، وفخر القبائل بما كان لها من مواقف في قتال فارس والروم.. وعاش الأمويون عيشة عربية يقاتلون بالعصبية القبلية ويتخذونها سلاحاً لهم».

لقد أخذ المؤرخون باهتمام العرب في الجاهلية بعلم الأنساب، لذا صار هذا العلم شكلاً من أشكال التعبير التاريخي المحبب للنفس، بهذا احتفظ علم الأنساب بمكانته بعد الفتوحات الإسلامية الأولى، ويتضح ذلك من عناية بني أمية بهذا الجانب، فهم الذين وضعوا القواعد العلمية لتسجيله لكي يكون صورة من صور التاريخ الإسلامي، من ناحية أخرى حارب بنو العباس علم الأنساب مدعين أنه لم يثبت أبداً أن الشعر الجاهلي قد تعرض لكل من قبيلتي عدنان وقحطان، ولم يعثر أيضاً في النقوش اليمنية أو الثمودية أو الصفوية ما يتعلق بهذا الموضوع، لذا اعتبره نوعاً من الشعوبية المرفوضة، وعلى الرغم من هذا كله بقي الباحثون في العصر العباسي يدرسون علم الأنساب عن كثب. وهذا يظهر واضحاً من المؤلفات الرائعة التي كتبت في هذا الميدان لكل من أبي اليقظان والنسابة هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هجرية) والهيثم بن عدي (٢٠٦ هجرية) ومصعب بن الزبير (ت ٢٣٣ هجرية) والبلاذري (ت ٢٧٩هجرية) وغيرهم.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه «نصوص ودروس في نشأة علم التاريخ عند العرب»: «خدمت دراسات الأنساب علم التاريخ في المادة وفي خطة الكتابة. فقد تجددت العناية بالأنساب في الإسلام. وجاء إنشاء (الديوان) بدافع جديد للاهتمام بها. وقد شجع الأمويون ابتداء من معاوية مثل هذه الدراسات، ويروى أن الوليد الثاني أمر بعمل سجل واف بالأنساب. ثم إن الحاجات الإدارية كتنظيم العطاء وإسكان القبائل في الأمصار أدت إلى وضع سجلات بالأنساب وعززت الاهتمام بها، يضاف إلى ذلك الخصومات القبلية وأثر الأوضاع السياسية على وضع القبائل، وظهور ارستقراطية جديدة في الإسلام، والعوامل الاجتماعية، وكل هذه شجعت دراسات الأنساب، وأخيراً فإن المناقشات مع الشعوبية وتهجم هؤلاء على الأنساب أدت إلى تأكيد جديد على دراسة الأنساب».

وخلاصة القول: استطاع الشعوبيون في العصر العباسي أن يثيروا مثالب كل قبيلة عربية، مما دفع المؤرخين إلى الاهتمام الحقيقي في علم الأنساب. من هنا أصبح علم الأنساب فرعاً من فروع علم التاريخ على الرغم من أن بعض علماء المسلمين المشهورين حاولوا جادين أن تحل الأخوة الإسلامية محل التعصب القبلي؛ لأن العقيدة الإسلامية هي التي أعطت تصوراً واضحاً للكون منذ الخلق حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ليس من العيب أن يلم الإنسان بأخبار القبائل العربية الأصيلة، ولكن العيب التفاخر بذلك. لقد تواتر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان نسابة وله باع طويل في معرفة تاريخ القبائل العربية، ولكنه أبعد الناس من العصبية المنتنة. والشيء المحزن أن الأمويين كانوا يحاربون الشعوب بالعصبية القبلية، مما أعطى الحكام والأمراء ورؤساء القبائل الفرصة لأن يتباروا في هذا الميدان، ويجعلوا علم الأنساب القوة المحركة للعلم التأريخي، لذا كتبت المصنفات العديدة التي تعنى بتراجم وسير أشراف العرب حسب أنسابهم. ولا شك أن علم الأنساب كان له دور عظيم في الأندلس؛ لأن الصراعات كانت قائمة على أشدها بين العرب والبربر والصقالبة، لذا صار علم الأنساب حقلاً أساسياً من حقول علم التاريخ.